

تعليق على كلام الشيخ عبد اللّٰه بن بيه

في محاضرته عن التأصيل الشرعي للتصوف

الكاتب

عبد العزيز مصطفى الشامي



تعليق على كلام الشيخ عبد الله بن بيه[1]

في محاضرته عن التأصيل الشرعي للتصوف

خاص إحسان

عبد العزيز مصطفى الشامي[2]

في مؤتمر عُقد بالمغرب بدعوة من وزير الأوقاف المغربي الدكتور أحمد التوفيق، وتحت رعاية محمد السادس ملك المغرب، عرض الشيخ عبد الله بن بيه لرؤيته في التقريب بين الأفكار والاتجاهات الإسلامية، وقامت أركان مداخلة الشيخ في هذا المؤتمر على التأصيل الشرعي للتصوف[3]، ومع حفظ مكانة الشيخ، واحترامه؛ لمقامه وعمره، ودوره الدعوي، وإنتاجه الفكري، إلا أن القاعدة التي تعلمناها من علمائنا أن الحق لا يُعرف بالرجال، وأن كلاً يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هذا المنطلق كانت هذه الكلمات التي لم نرد منها إلا بيان الحق صفوًا، وليس من مقصدنا الطعن في الأشخاص ولا ازدراؤهم، معاذ الله،

(1) هو الشيخ عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيّه، مواليد سنة 1935م في تمبدغة في موريتانيا، من علماء السنة المعاصرين، ونائب رئيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين، تم اختياره من قبل جامعة جورج تاون كواحد من أكثر 50 شخصية إسلامية تأثيرًا لعام 2009م، وقد فاز بلقب أستاذ الجيل في جائزة الشباب العالمية لخدمة العمل الإسلامي في دورتها السابعة في البحرين، وللمزيد عن الشيخ انظر الرابط التالي:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87_%D8%A8%D9%86_%D8%A8%D9%8A%D9%87

(2) باحث شرعي ومحرر ومدقق لغوي – مصر.

(3) انظر كلام الشيخ بالتفصيل على الرابط التالي:
http://www.binbayyah.net/portal/research/622 .

وإنما القصد بيان الحق، ورد الشبهة عن دين الأمة، معذرةً إلى ربنا وإبراء للذمة،[(4)] ومن أجل ذلك كانت هذه الكلمات، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

توطئة وتمهيد:

بدأ الشيخ كلامه في المؤتمر بقوله: «إن الخصومة الفكرية بين مختلف الطوائف الإسلامية لم تسلم منها طائفة، فلم يكن من الغريب ولا الشاذ أن تُقحم الطائفة الصوفية في هذه الخصومة أصلاً وفرعًا». وصدق، فقد تسلطت كثير من الجماعات والفرق المنتسبة إلى الإسلام حاملة شعاره رافعة لوائه، بجهل وبدون قصد في إثارة النعرات، وتضخيم الخلاف، وعدم إعطاء المسألة المختلف فيها حجمها الشرعي المطلوب، فلنختلف إذًا، فنحن لن نتفق جميعًا على قلب رجل واحد، ولكن كما اختلف سلف الأمة، فهناك فارق بين اختلاف التنوع في الأحكام وما أكثره وهو لا ينحصر، وفيه لا تنقطع آصرة المودة ولا المحبة بين المسلمين، ولا إنكار فيه بل التعليم والإرشاد والتوجيه بمحبة وصدق وصبر، وهناك اختلاف التضاد الذي يُنكر فيه على المخالف، وقد يُهجر، حتى تقام عليه الحجة في البيان الواضح مع الفهم السليم برفق ورحمة وحب الهداية والتوفيق.

ولا شك أن الصوفية قد جاءوا بمخالفات جسيمة، وبدع وشطحات وافتراءات كثيرة، مما يحيل الأمر لا إلى خلاف التنوع بل يؤدي به إلى خلاف التضاد، قال الشيخ ابن جبرين –رحمه الله-: « فإن أغلب الصوفية –سيما المتأخرين– لهم شطحات خاطئة لا يجوز شرعًا اتباعهم فيها، فقد ظهر بُعْدُهم فيها عن الصواب،

(4) جدير بالذكر أن التعليق على كلام الشيخ عبد الله بن بيه سيكون مختصرًا، ولن يشمل كل المحاور التي تعرض لها الشيخ؛ إذ إن التعرض لكل أمر بالتفصيل يستغرق وقتًا وجهدًا لا تكفي له هذه المقالة المختصرة، وقد اقتصرنا في الرد والتعليق على 12 نقطة مهمة من كلام الشيخ؛ رغبةً في الاختصار، وعرض القضايا الأساسية محل الخلاف.

ولهم أيضًا طرق، وأحوال مبتدعة: كالسماع، والرقص، والخلوة الطويلة، والبعد عن العلم، والعلماء، والاستغناء عن الوحي بالأوهام، وحديث النفس الذي يخيل أنه وحي إلهام، فكيف يسوغ اتباعهم في هذه البدع ونحوها؟ وبأي نص أمرنا بذلك؟» [الجواب الفائق، 1/ 81]. (5)

1- التصوف تعريف وتأصيل:

قال الشيخ بن بيه: «وقد اختلف الناس في تعريف لفظ التصوف إلى ألفي قول، كما يقول سيدي أحمد زروق في قواعده، لكنه في نفس القاعدة يرده إلى صدق التوجه إلى الله تعالى وهو الإحسان. وقال السيوطي في النقاية: التصوف: تجريد القلب لله، واحتقار ما سواه بالنسبة إليه. وقال بعضهم: هو السلو عن الأعراض بالسمو إلى الأغراض. واختلاف التعريفات -كما يقول ابن أبي شريف- راجع إلى مقام من مقامات التصوف غلب على قائله النظر إليه، فعرفه به باعتباره الركن الأعظم، كما عرف النبي عليه الصلاة والسلام الحج بقوله: «الحج عرفة» باعتبار ركنه الأعظم.. فالتصوف هو النظر لأحوال القلوب..».

وإن تعريف الشيخ لمصطلح التصوف بهذا التعريف، ونقله للتعريفات التي تؤيد ما ذهب إليه فقط، فيه ميل عن الصواب، وذلك أن تعريف التصوف فيه أخذ ورد، والقول ونقضيه، بحسب اختلاف مشارب المعرّفين والشارحين، بين متحفظ، وناقد،

(5) هذا مجرد نقل واحد فقط، ولو ذهبنا ننقل أقوالهم وأباطيلهم لطال بنا المقام، وحتى لا يظن أحد أننا نتجنى عليهم، فهذه أسماء بعض مراجعهم، وستجد أن ما ذكرناه أقل بكثير من شناعة أفكارهم، انظر "الفتوحات المكية" لابن عربي (537/2- 455)، كتاب "اليواقيت والجواهر" لعبد الوهاب الشعراني (79/2)، "المعجم الصوفي" لسعاد الحكيم (189-191، 909-913)، وانظر من مراجع أهل السنة "الفكر الصوفي" للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق (343-383).

ومؤيـد، ولكـل وجهـة تولاهـا في تعريفـه للتصـوف، وقـد عرفـت الموسـوعة الميسـرة في الأديان والمـذاهب المعاصـرة التصـوف بمـا يلـي: «التصـوُّف حركـة دينيـة انتشـرت في العـالم الإسـلامي في القـرن الثالـث الهجـري، كنزعـاتٍ فرديـة تـدعو إلى الزهـد وشـدة العبـادة، كـرد فعـل مضـاد للانغمـاس في الـترف الحضـاري. ثم تطـورت تلـك النزعـات بعـد ذلـك حـتى صـارت طرقًـا مميـزة معروفـة باسـم الصـوفية، ويتـوخّى المتصـوفة تربيـة الـنفس والسـمو بهـا بغيـة الوصـول إلى معرفـة الله تعـالى بالكشـف والمشـاهدة لا عـن طريـق اتبـاع الوسـائل الشـرعية، ولـذا جنحـوا في المسـار حـتى تـداخلت طـريقتهم مـع الفلسـفات الوثنيـة: الهنديـة والفارسـية واليونانيـة المختلفـة. ويلاحـظ أن هنـاك فروقًـا جوهريـة بـين مفهـومي الزهـد والتصـوف، أهمهـا: أن الزهـد مـأمور بـه، والتصـوف جنـوح عـن طريـق الحـق الـذي اختطَّـه أهـل السـنة والجماعـة» [الموسـوعة الميسـرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الصوفية 45/1].

وقـد سُـئِلَ شَـيْخُ الْإِسْـلَامِ – قَـدَّسَ اللَّهُ رُوحَـهُ-: عَـنْ الصُّـوفِيَّةِ، وأقسـامهم، فَأَجَـابَ: «الْحَمْـدُ لِلَّهِ، أَمَّـا لَفْـظُ «الصُّـوفِيَّةِ» فَإِنَّـهُ لَمْ يَكُـنْ مَشْـهُورًا فِي الْقُـرُونِ الثَّلَاثَـةِ، وَإِنَّمَـا أُشْـتُهِرَ التَّكَلُّمُ بِـهِ بَعْدَ ذَلِـكَ، وَقَدْ نُقِلَ التَّكَلُّمُ بِـهِ عَنْ غَـيْرِ وَاحِـدٍ مِنْ الْأَئِمَّـةِ وَالشُّيُوخِ: كَالْإِمَـامِ أَحْمَد بْـنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي سُـلَيْمَانَ الـداراني وَغَيْرِهِمَـا. وَقَـدْ رُوِيَ عَـنْ سُـفْيَانَ الثَّـوْرِيِّ أَنَّـهُ تَكَلَّـمَ بِـهِ، وَبَعْضُـهُمْ يَـذْكُرُ ذَلِـكَ عَـنْ الْحَسَـنِ الْبَصْـرِيِّ وَتَنَـازَعُوا فِي «الْمَعْـنَى» الَّـذِي أُضِـيفَ إلَيْـهِ الصُّـوفِيُّ -فَإِنَّـهُ مِـنْ أَسْمَـاءِ النَّسَـبِ: كَالْقُرَشِـيِّ وَالْمَـدَنِيِّ وَأَمْثَـالِ ذَلِـكَ. فَقِيـلَ: إنَّـهُ نِسْبَةٌ إلَى «أَهْـلِ الصُّـفَّةِ» وَهُـوَ غَلَـطٌ؛ لِأَنَّـهُ لَـوْ كَـانَ كَـذَلِكَ لَقِيـلَ: صُـفِّيّ. وَقِيـلَ نِسْـبَةٌ إلَى الصَّـفِّ الْمُقَـدَّمِ بَـيْنَ يَـدَيْ اللَّهِ، وَهُـوَ أَيْضًـا غَلَـطٌ؛ فَإِنَّـهُ لَـوْ كَـانَ كَـذَلِكَ لَقِيـلَ: صَـفِّيّ. وَقِيلَ نِسْـبَةٌ إلَى الصَّـفْوَةِ مِـنْ خَلْـقِ اللَّهِ وَهُـوَ غَلَـطٌ؛ لِأَنَّـهُ لَـوْ كَـانَ كَـذَلِكَ لَقِيـلَ: صـفوي وَقِيلَ: نِسْبَةٌ إلَى صُـوفَةَ بْـنِ مر بْـنِ أد بْـنِ طانجة قَبِيلَـةٌ مِـنْ الْعَـرَبِ كَـانُوا يُجَـاوِرُونَ

بِمَكَّةَ مِنْ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ يُنْسَبُ إلَيْهِمْ النُّسَّاكُ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِلنَّسَبِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ فَإِنَّهُ ضَعِيفٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ غَيْرُ مَشْهُورِينَ وَلَا مَعْرُوفِينَ عِنْدَ أَكْثَرِ النُّسَّاكِ، وَلِأَنَّهُ لَوْ نُسِبَ النُّسَّاكُ إلَى هَؤُلَاءِ لَكَانَ هَذَا النَّسَبُ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ أَوْلَى، وَلِأَنَّ غَالِبَ مَنْ تَكَلَّمَ بِاسْمِ "الصُّوفِيِّ" لَا يَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ، وَلَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إلَى قَبِيلَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: -وَهُوَ الْمَعْرُوفُ-: إنَّهُ نِسْبَةٌ إلَى لُبْسِ الصُّوفِ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَتْ الصُّوفِيَّةُ مِنْ الْبَصْرَةِ وَأَوَّلُ مَنْ بَنَى دويرة الصُّوفِيَّةِ بَعْضُ أَصْحَابِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ، وَكَانَ فِي الْبَصْرَةِ مِنْ الْمُبَالَغَةِ فِي الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ» [مجموع الفتاوى: 5/11].

فليس من الدقة تعريف التصوف على أنه الإحسان الذي أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليه، إذ إن مرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين، من بلغها فإنه بلغ أعلى مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام. فالدين على ثلاث مراتب: الإسلام.. والإيمان.. والإحسان. وكل مرتبة لها أركان، والإحسان أعلاها. فالإسلام يمثل أعمال الجوارح.. والإيمان يمثل أعمال القلوب.. والإحسان إتقان تلك الأعمال، وحسن أدائها، مع كمال التوجه بها إلى الله سبحانه وتعالى. والإحسان في العبادة له مرتبتان:

الأولى: أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه عبادة طلب وشوق، ورغبة ومحبة، وهذه أعلى المرتبتين.

الثانية: إذا لم تعبد الله كأنك تراه فاعبده كأنه هو الذي يراك عبادة خائف منه، هارب من عذابه وعقابه، معظّم له ولأمره.

والنـاس متفـاوتون في هـذه الـدرجات والمنـازل؛ فإيمـان بالله ومحبتـه يولـد الشـوق والطلـب، والتعظـيم يولـد الخـوف والهـرب.. وفي هـذا كمـال العبوديـة لله.. وكمـال الحـب لـه.. وكمـال التعظـيم لـه.. وهـذا هـو الإحسـان في عبـادة الله سـبحانه، كمـا قـال سـبحانه: (وَمَـنْ يُسْـلِمْ وَجْهَـهُ إِلَى اللَّهِ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ فَقَـدِ اسْتَمْسَـكَ بِالْعُـرْوَةِ الْـوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُورِ) [لقمان: 22].

وعـن عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنـه قـال: "بَيْنَمَـا نَحْـنُ عِنْـدَ رَسُـولِ الله ذَاتَ يَـوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَـا رَجُـلٌ شَـدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَـابِ، شَـدِيدُ سَـوَادِ الشَّـعرِ، لا يُـرَى عَلَيْـهِ أَثَـرُ السَّـفَرِ، وَلا يَعْرِفُـهُ مِنَّـا أحَـدٌ، حَـتَّى جَلَـسَ إلى النَّـبِيِّ، فَأسْـنَدَ رُكْبَتَيْـهِ إلى رُكْبَتَيْـهِ، وَوَضَـعَ كَفَّيْـهِ عَلَـى فَخِذَيْـهِ، وَقَـالَ: يَا مُحَمَّـدُ! أخْـبِرْنِي عَـنِ الإِسْـلامِ. فَقَـالَ رَسُـولُ الله: «الإِسْـلامُ أنْ تَشْـهَدَ أنْ لا إِلَـهَ إلا اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ الله صـلى الله عليـه وسـلم، وَتُقِـيمَ الصَّـلاةَ، وَتُـؤْتِيَ الزَّكَـاةَ، وَتَصُـومَ رَمَضَـانَ، وَتَحُـجَّ الْبَيْـتَ، إِنِ اسْـتَطَعْتَ إِلَيْـهِ سَـبِيلاً» قـال: صَـدَقْتَ. قـال فَعَجِبْنَـا لَـهُ؛ يَسْـألُهُ وَيُصَـدِّقُهُ. قـال: فَـأخْبِرْنِي عَـنِ الإِيمَـانِ. قـال: «أنْ تُـؤْمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِـهِ، وَكُتُبِـهِ، وَرُسُـلِهِ، وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ، وَتُـؤْمِنَ بِالْقَـدَرِ خَيْـرِهِ وَشَـرِّهِ»، قـال: صَـدَقْتَ. قـال فَـأخْبِرْنِي عَـنِ الإِحْسَـانِ. قـال: «أنْ تَعْبُـدَ اللهَ كَأنَّـكَ تَـرَاهُ، فَـإِنْ لَمْ تَكُـنْ تَـرَاهُ فَإِنَّـهُ يَـرَاكَ» [مسـلم 8]. فلـيس التصـوف إحسـانًا بـل أكثـره –وخاصـة أصحاب الطرق منه– شطحات وبدع وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

2– الصوفية واتباع السنة:

ثم قـال الشـيخ: «إن الصـوفية تقـدم أنواعًـا شـتى مـن الوسـائل مسـتقاة مـن الكتـاب والسـنة والتجـارب الروحيـة الخاصـة اعتمـادًا علـى قولـه تعـالى: {وفي أنفسـكم أفـلا تبصـرون}، فجـدوا في العبـادة وألزمـوا أنفسـهم الأوراد في الأوقـات، وأمـروا بالمحافظـة

عليهـا بإطـلاق، وشـددوا في الامتثـال: فـلا فـرق في مقتضـى الطلـب بـين واجـب ومنـدوب ولا بـين مكـروه ومحـرم.. واشـتغلوا بالأذكـار، فرتعـوا في رياض الجنـة كمـا في الحـديث الصـحيح: «إذا مـررتم بـرياض الجنـة فـارتعوا»، قيـل: يا رسـول الله ومـا رياض الجنـة؟ قـال: «حلـق الـذكر».. حـتى قـال الشـيخ: «فأصـولهم في الكتـاب والسـنة وأفعـال السـلف قـد تكـون دقيقـة.. وقـد قـال الجنيـد: (علمنـا هـذا مقيـد بالكتـاب والسـنة، فمـن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين.. أفسد من اتبعه)».

يـزعم المتصـوفة –كمـا هـو شـأن كـل الطوائـف المفارقـة للمـنهج الـرباني– أنهـم علـى حـق، وأن مـا يـدينون بـه مـن أفكـار وخرافـات إنمـا هـي نابعـة مـن تمسـكهم بالكتـاب والسـنة وفهـم حقـائق الإسـلام، وهـذه الـدعوى ينتحلهـا زعمـاء الطوائـف بغـرض تـرويج مبـادئهم، وإظهارهـا بمظهـر الحـق مهمـا كانـت بعيـدة عنـه، وذلـك أن دعـوى التمسـك بالكتـاب والسـنة سـهلة علـى اللسـان، ولكـن التطبيـق هـو الـذي يصـدق ذلـك أو يكذبه.

والـدليل علـى ذلـك كثـرة بـدع الصـوفية وشـطحاتها وضـلالاتها، والـتي بـدأت مـن هفـوات بعـض العبـاد والنسَّـاك الأوائـل، مـن غـير سـوء قصـد مـنهم، وهكـذا البـدع أول مـا تنشـأ مـن تجـاوزات، وهفـوات، وزلات، وغفـلات يُتَسَـاهَل فيهـا حـتى تُستسـاغ، ثم تنمـو وتتطـور حـتى تكـون بـدعًا وأصـولاً ومنـاهج في سـبيل الضـلالة والغوايـة... وقـد حـذر النـبي صـلى الله عليـه وسـلم أصـحابه مـن بعـده مـن هـذا، حينمـا أرشـد أولئـك النفـر مـن الصـحابة، وحـذّر الأمـة كلهـا ممـا همـوا بـه حـين همـوا بأن يتعمقـوا في العبـادة علـى غـير السـنة، فقـال: «أنـتم الـذين قلـتم كـذا وكـذا؟ أمـا والله إني لأخشـاكم لله، وأتقـاكم لـه،

لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [صحيح البخاري (5063)].

وهذا بيان عظيم من الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته لئلا تقع فيما وقع فيها رهبان النصارى وعُبّاد الأمم الهالكة.. وفي القرن الثاني وما بعده زادت البدع في العبادات وغيرها لدى طائفة من العباد والنساك والجهلة، وأنكر عليهم السلف ذلك، ثم اتسع نطاق البدع عند جهلة العباد، والسلف ما فتئوا يحذرون من هذه البدع وأهلها.

3- حديث حنظلة وطريق المحبة:

وقد ساق الشيخ عدة أحاديث يدلل بها على أهمية محبة الله تبارك وتعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن هذا المسلك الصوفي في المحبة منطلق من أصول السنة المحمدية، فقال: «**حديث حنظلة قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة! قال: قلت نافق حنظلة. قال: سبحان الله! ما تقول. قال: قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت: أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه**

وسلم: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات» [أخرجه مسلم 2750]...

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إن رجلاً على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم– كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحِك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– قد جلده في الشراب، فأُتي به يوما فأَمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يُؤتى به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله» [أخرجه البخاري 6780]...

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» [أخرجه مسلم 44].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله متى الساعة قائمة؟ قال: «ويلك وما أعددت لها». قال ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله. قال: «إنك مع من أحببت». فقلنا ونحن كذلك؟ قال: نعم. ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا. [متفق عليه]».

ثم قال الشيخ معلقًا على هذه الأحاديث السابقة: «هذا الفضاء المترع بالمحبة والمشرق بالأنوار وهذه الرؤى والأشواق والحب والشفافية ولواعج النفوس

والإلهامات والمراءي والأسرار ليس لها ناظم يجمعها، ولا سياق يسوقها بإزاء صور الأعمال مع الاعتراف بحاجة كل منهما للآخر، كما لا غنى للجسد عن الروح ولا للروح عن الجسد. إنما كمالات تسعى إليها الهمم العالية..».

والمحبة عند أهل السنة والجماعة، هي إيثار الشرع المطهر على حظوظ النفس، وتمام المحبة في اتباع الشرع، دون مجافاة ولا تهاون، ودون تعظيم مبالغ فيه ولا إطراء، بل الوقوف مع النص والشرع حيث وقف، وفهم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين، ولا شك أن محبة الله ورسوله متى استحكمت في القلب حوَّلت الحياة إلى جنة في الدنيا، بشرط أن يكون صاحبها مخلصًا غير مشرك، متبعًا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم غير مبتدع، قال ابن القيم –رحمه الله-: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه– يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وقال لي مرة: ما يصنع بي أعدائي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه الأخير في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكري هذه النعمة. أو قال ما جزيتهم عني ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» ما شاء الله، وقال لي مرة: «المحبوس من حُبس قلبه من ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه». ولما أُدخل إلى سجن القلعة، وصار داخل السور نظر إليه، وقال: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: 13]».

ويضيف ابن القيم رحمه الله: «وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدهما، ومع ما كان فيه من

الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها».

قال ابن القيم رحمه الله: وحدثني بعض أقارب شيخ الإسلام رحمه الله قال: كان في بداية أمره يخرج أحيانا إلى الصحراء يخلو عن الناس لقوة ما يرد عليه، فتبعته يومًا فلما أصحر تنفس الصعداء، ثم جعل يتمثل بقول الشاعر، وهو لمجنون ليلى في قصيدته الطويلة:

وأَخْرُجُ مِن بينِ البيوتِ لَعَلَّنِي... أُحَدِّثُ عَنْكِ النفسَ بالسرِّ خاليًا

انتهى من الوابل الصيب [ص 93 و 94].

وقال ابن القيم رحمه الله في وصف السابقين بالخيرات ومحبتهم لربهم سبحانه: «وجملة الأمر أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسرت المحبة في أجزائهم، فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب، قد أنساهم حب ذكره غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه، قد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه، عن تعلق ذلك منهم بغيره، فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه واجتمع همه عليه، متذكرًا صفاته العلى وأسماءه الحسنى، مشاهدا له في أسمائه

وصفاته، قد تجلت على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه على فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلاً منكسرًا من كل جهة من جهاته، فيا لها سجدة ما أشرفها. من سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء...

إلى أن قال: وجماع الأمر في ذلك إنما هو تكميل عبودية الله في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبته ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه، وبذل الجهد في تركه، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة لا للأمارة ولا للوامة فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل». [طريق الهجرتين 1/ 334].

4- ألفاظ الصوفية:

وقال الشيخ: «ويدخل في المصطلحات ألفاظ كالشيخ، والمريد، والسالك، والمجذوب والوتد، ولها دلالات مقبولة، وقد استعمل أهل الحديث لفظ الشيخ في التعديل، كما استعمل الطالب والحافظ والحاكم لتمييز رتب المحدثين. وكما قال السيوطي: (واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها على الفقهاء بالعبارة التي ألفوها في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان وكانوا أول قائل بها وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها...».

قد يكون الأصل في الألفاظ أنها غير توقيفية، فقد يعبر كثير من الناس عن بعض المعاني بألفاظ مختلفة، لكنها في الحقيقة تدل على نفس المعنى، ولكن الألفاظ إذا صارت مبهمة تدل على عوار في الفكر، وتخبط في المعتقد، وتُحدِث لبثًا عند القارئ

والسـامع، وتصـير حكـرًا في الفهـم والمضـمون لأصـحابها، فهـذه ألفـاظ مبتدعـة، خاصـة في الشرعيات والأمور الدينية العبادي.

وإن المــدقق في ألفــاظ الصــوفية وعلــومهم يجــدها تختلــف وتتنــوع، فيطلقــون ألفــاظهم علـى موضـوعات لهـم برمـوز خاصـة بهـم، وإشـارات تجـري فيمـا بيـنهم، فمـن لم يعـرف حقيقـة ألفـاظهم، لم يقـف علـى حقيقـة انحرافـاتهم وكثـرة سـقطهم، فـلا بـد مـن تحريـر المصـطلحات موضـع النـزاع، حـتى تكـون الأمـور واضـحة بينـة لا لـبس فيهـا، والـذي ينظـر في الألفــاظ الشــرعية يجــدها في غايــة الوضــوح، بحيــث قــد يفهمهــا العــامي البسـيط، والأمـيّ الـذي لا يقـرأ ولا يكتـب، ويتوسـع في فهـم دلالاتهـا العـالم المتبحـر، مـع أن أصـل فهمهـا واحـد، ولكـن الله يمـن علـى مـن يشـاء بعلـم وفهـم زائـدين، ويفـتح علـى الفقهـاء والعلمـاء بعلـوم لم تكـن عنـد الآخـرين في اللفـظ الواحـد، ولـذلك صـح عـن النـبي صـلى الله عليـه وسـلم أنـه قـال: «نضَّـر الله امـرًا سمـع حـديثًا فحفظـه حـتى يبلغـه غـيره، فـرُبّ حامـل فقـه إلى مـن هـو أفقـه منـه ورب حامـل فقـه لـيس بفقيـه..» [أبـو داود 3662 وابن ماجه 230 وصححه الألباني].

ولـذلك لمـا سـئل شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة رحمـه الله عـن بعـض ألفـاظ ومصـطلحات الصـوفية، كالقطـب والغـوث، والوجـد، والأوتاد، والأبـدال وغيرهـا، قـال: «أمـا الأسمـاء الــدائرة علــى ألســنة كثــير مــن النســاك والعامــة، مثــل الغــوث الــذي بمكــة، والأوتاد الأربعــة، والأقطــاب الســبعة، والأبــدال الأربعــين، والنجبــاء الثلاثمائــة، فهــذه أسمــاء ليسـت موجـودة في كتـاب الله تعـالى، ولا هـي أيضًـا مـأثورة عـن النـبي صـلى الله عليـه وسـلم بإسـناد صـحيح ولا ضـعيف يحمـل عليـه، إلا لفـظ الأبـدال، فقـد روي فـيهم حـديث شـامي منقطـع الإسـناد.. ولا توجـد هـذه الأسمـاء في كـلام السـلف كمـا هـي

على هذا الترتيب، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشائخ المقبولين عند الأمة قبولاً عامًّا، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشائخ..».[انتهى باختصار من مجموع فتاوى ابن تيمية (433/11-444)].

5- ابتداع الأوراد:

وقال الشيخ: «ما اصطلحت عليه هذه الطائفة من تحديد أعداد الأوراد من الذكر والتلاوة أو نحوه، فقد كان موضع إنكار من المنكرين. وقد حدّد عليه السلام أورادًا بعد الصلوات وأورادًا مطلقة بالأعداد، وأحيانًا مع الإشارة إلى استحسان الزيادة، كقوله: «إلا من زاد على ذلك» في ورد: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا من زاد). أو كما قال صلى الله عليه وسلم. وجاء في الحديث: (أحب العمل إلى الله أدومه). وجاء في الحديث: (كان عمله ديمة). وإن كان قد ورد إنكار عن ابن مسعود، فهو محمول على من شغله عن عمل أوجب منه، وإلا فحديث المرأة التي كانت تسبح بالحصى أو النوى، وإقراره عليه الصلاة والسلام لها على ذلك خير دليل على الجواز، وهذا الحديث رواه النسائي وابن حبان وأبو داود والترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد عن سعد بن أبي وقاص».

لقد اخترع الصوفية وظائف وأورادًا، وجعلوا لها ثوابًا من عند أنفسهم، وأوجدوا لها حِلقًا وآدابًا. ومن هذه الأوراد، ما لم يرد في كتاب ولا سنة... فعندما يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن أفضل الذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله. يقول بايزيد الأنصاري وهو يقسم الذكر إلى أقسام: «أما ذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهو ذكر اللسان، وهو يجوز في الشريعة، وذكر (لا إله إلا الله) هو ذكر القلب،

وهـو يجـوز في الطريقـة، وذكـر (إلا الله) هـو ذكـر الـروح، وهـو يجـوز في الحقيقـة وذكـر (الله) هـو ذكـر السـر، وهـو يجـوز في المعرفـة، وذكـر (هـو) هـو ذكـر الغيـب، وهـو يجـوز في القربـة، والاسـم الأعظـم هـو ذكـر المـذكور، وهـو يجـوز في الوحـدة. وحُكـي عـن الشـبيلي أنـه قيـل لـه: لِمَ تقـول: (الله)؟ ولا تقـول: (لا إلـه إلا الله)؟ فقـال: أسـتحي أن أوجـه إثبـاتًا بعـد نفـي.. أخشـى أن أؤخـذ في كلمـة الجحـود، ولا أصـل إلى كلمـة الإقـرار). [للاسـتزادة انظـر مجمـوع الأوراد الكبـير، محمـد عثمـان الميرغـني، مصـر، ط/ مصطفى الحلبي 1358هـ/1939م].

وبالنظـر والتأمـل في الـذكر عنـد الصـوفية نجـد أنهـم يولـون هـذا البـاب عنايـة كبـيرة، إلا أنهـم انحرفـوا فيـه عـن جـادة السـنة إلى طـرق البـدع والمحـدثات والغلـو، وإليـك شـيئًا مـن انحرافاتهم في الصور التالية:

أولاً: ضـرورة تلقـي الـذكر عـن الشـيخ المرشـد: يعـد الصـوفية ذكـر الله عـز وجـل بجميـع صـيغه دواء لأمـراض القلـوب وعلـل النفـوس، وبمـا أن صـيغ الأذكـار كثـيرة ومتنوعـة، ولكـل صـيغة تأثـير قلـبي خـاص ومفعـول نفسـي معـين . ولا أدري مـا هـو الـدليل الشـرعي علـى هـذا التقسـيم المحـدث . فـإن مرشـدي السـادة الصـوفية أطبـاء القلـوب ووارثـي الرسـول الأعظـم صـلى الله عليـه وسـلم في الـدعوة والتوجيـه يأذنـون لمريـديهم بأذكـار معينـة تتناسـب مـع أحـوالهم وحاجـاتهم، وتـرقيهم في السـير إلى رضـوان الله تعـالى، وذلـك كمـا يعطـي الطبيـب الجسـماني للمـريض أنواعًـا مـن الأدويـة والعلاجـات تـتلاءم مـع علله وأسـقامه، ثم يبـدل لـه الـدواء حسـب تقدمـه نحـو الشـفاء، ولهـذا لابـد للمريـد السـالك أن يكـون علـى صـلة بالمرشـد، يستشـيره ويـذاكره ويعـرض عليـه مـا يجـده في الـذكر مـن فوائـد روحيـة وأقـوال قلبيـة وحظـوظ نفسـية، وبـذلك يترقـى

في السير، ويتدرج في السمو الأخلاقي والمعارف الإلهية!! [عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف ص179].

فالذكر عند الصوفية منحرف عن جادة السنة إلى طرق البدع والغلو، مع اعتقادهم بضرورة تلقي المريد الذكر من شيخه من خلال طقوس معينة واحتفالات مطولة حتى يتشرف بتلقي الذكر عن شيخه.

والذكر الذي يلقنه صاحب الولاية هو ثمرة شجرة ولايته لأنه تلقى الذكر أيضًا بتلقين صاحب ولاية أخرى، وتربت في أرض القلب بماء مدد الولاية وشمس همة الشيخ!! وتأمل اعتقادهم حصول النفع وتحقيق المطلوب الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى من غير الله عز وجل، لأن حصول النفع القلبي والتأثير الروحي كما هو معلوم لا يقدر عليه إلا الله كما قال عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} والمقصود بالنفي هنا إدخال الهداية إلى قلوب العباد.

وشرط التلقين هو أن يصوم المريد ثلاثة أيام بوصية الشيخ، ويجتهد في هذه الأيام الثلاثة بمداومته على الوضوء، ويكون ذاكرًا على الدوام حتى إذا كان الذكر في نفسه في ذهابه وإيابه ويقلل من الاختلاط بالناس، ويتحدث بقدر الضرورة، ولا يأكل كثيرًا وقت الإفطار ويقوم الليالي للذكر، وبعد اليوم الثالث يغتسل بأمر الشيخ، وينوي بنية غسل الإسلام -ولا أدري قبل ذلك على أي دين كان؟!- مثلما كان يفعل كل شخص في البداية يريد أن يدخل في الدين، إذ كان يغتسل أولاً اغتسال الإسلام ثم يتلقن الكلمة عن الرسول صلى الله عليه وسلم... وبعد أن يقوم

بالاغتسال الكامل يذهب إلى خدمة الشيخ بعد صلاة العشاء، فيجلسه الشيخ تجاه القبلة ويجلس الشيخ أمام المريد موليًا ظهره القبلة، ويجلس المريد على ركبتيه في خدمة الشيخ ويضع يديه فوق بعضها ويستحضر قلبه، ويوصيه الشيخ بالوصية وهي الشرط ويلقن المريد بضع كلمات من أسرار التلقين وخواص الذكر . تأمل . بحيث تكون موافقة لفهم المريد ونظره حتى يستجمع المريد قواه ويخلي المريد القلب من جميع الأشياء.. وما أجمل الهدي النبوي لو كانوا يعقلون فإنه أشمل وأجمل وأرحم..

قال الشيخ سفر الحوالي: «فالأئمة الأربعة وكل علماء الإسلام لم يكن لهم في التعبد إلا منهج واحد فقط، فالعبادة أوضح شيء في حياة المسلم؛ لأنها عمل يومي، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة يعملونه يوميًّا، ولذلك طبقته الأمة، ونقلته بالتواتر حتى جاء هؤلاء الصوفية فغيَّروا طريقة التعبد في الصلوات، وتلاوة القرآن، وقراءة الأذكار النبوية، فكتبوا الأوراد وجعلوها كتبًا عقيمة سقيمة، تحفظ غيبًا ولا يفهمها أحد ولا يفقه معناها، وأرغموا بها الناس وجعلوها وردًا للطريقة تتبع ويتقرب بها إلى الله في اليوم آلاف المرات.

فهؤلاء الانتساب إليهم لا أصل له بإطلاق؛ لأن الانتساب في الفقه أصله أن رجلاً رأى إمامًا من أئمة الفقه والعلم فانتسب إليه، لكن هذا ينتسب إلى أي شيء عندما يقول: أنا طريقتي شاذلي، أو قادري، أو رفاعي، ماذا عمل الشاذلي، أو الرفاعي، إن كانت عبادات وأذكار مشروعة يعملها المسلمون، فنحن والحمد لله نأخذ هذه العبادات من مصادرها الصحيحة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولماذا نفرق أنفسنا فنجعل هذا قادري وهذا شاذلي وهذا رفاعي؟ من

الــذي شــرع هــذا الاســم بالــذات؟ وشــرع لي هــذا الانتمــاء، وهــذا الانتســاب بالذات؟»[شرح العقيدة الحاوية 1195/1].

إن طريــق النجــاة يتمثــل في التوحيــد والإخــلاص والطاعــة والاتبــاع دون ابتــداع ولا اخــتراع، وإن المســلم لا يكــون مســلمًا ولا مؤمنًــا إلا إذا اعتصــم بالكتــاب والســنة، في العقائــد والفــرائض والســنن والأقــوال والأعمــال والأفعــال والأذكــار، علــى وجــه التســليم والرضــا والإخــلاص، ظــاهرًا وباطنًــا، خاصــة عنــد المعارضــة والمقابلــة يقــدم قــول النــبي صــلّى الله عليــه وســلّم علــى أقــوال جميــع أهــل الأرض كائنًــا مــن كــان، وأذكــاره صــلّى الله عليــه وســلّم علــى جميــع الأذكــار الــواردة عــن المشــايخ أهــل الطــرق وغــيرهم، ويعــرض تلــك الأوراد علــى الكتــاب والســنة فــإن وافقتهمــا عمــل بهــا، وإلا فــلا. ويقــف علــى الأذكــار الــواردة عــن النــبي صــلّى الله عليــه وســلّم فحينئــذ يكــون المســلم مســلمًا حقيقيًّــا طائعًــا لله ورســوله. قــال تعــالى: {اتَّبِعُــواْ مَــا أُنــزِلَ إِلَــيْكُم مِّــن رَّبِّكُــمْ وَلاَ تَتَّبِعُــواْ مِــن دُونِــهِ أَوْلِيَــاءَ} [الأعــراف: 3] وقــال ســبحانه: {وَمَــن يَعْتَصِــم بِاللَّهِ فَقَــدْ هُــدِيَ إِلَى صِــرَاطٍ مُّسْــتَقِيمٍ} [آل عمران: 101].

وقــد بــيَّن النــبي صــلى الله عليــه وســلم أن كــل عبــادة محدثــةٍ مــردودةٌ علــى صــاحبها مهمــا بلغــت، فقــال: «مــن عمــل عمــلاً لــيس عليــه أمــرنا فهــو رد» [رواه مســلم (1718)] من حديث عائشة رضي الله عنها.

فــلا يقبــل العمــل إلا إذا كــان خالصًــا لله، موافقًــا لســنة رســوله صــلى الله عليــه وســلم، وهــذا هــو المــراد مــن قولــه تعــالى: {ليبلــوكم أيكــم أحســن عمــلاً} قــال الفضــيل بــن عيــاض: أخلصــه وأصــوبه. قــالوا يا أبا علــي مــا أخلصــه وأصــوبه؟ قــال: إن العمــل إذا

كـان خالصًـا ولم يكـن صـوابًا لم يُقبـل، وإذا كـان صـوابًا ولم يكـن خالصًـا لم يُقبـل حـتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

فمـن أراد الوصـول إلى مرضـاة الله، فليلـزم سـنة رسـوله صـلى الله عليـه وسـلم، فكـل الطـرق إلى الله تعـالى مسـدودة، إلا هـذا الطريـق، طريـق نبيـه محمـد صـلى الله عليـه وسلم.

ولما كـان صلى الله عليه وسلم رحيمًـا بأمتـه، حريصًـا عليهم، لم يـدع شيئًا مـن الخير إلا بينـه لهـم، فمـن اخـترع اليوم عبـادة أو ذكـرًا أو وردًا، وزعـم أن فيـه خـيرًا، فقـد اتهـم النبي صلى الله عليه وسلم - شعر أو لم يشعر- بأنه لم يبلغ الدين كما أمره الله.

ولهـذا قـال الإمـام مالـك رحمـه الله: «مـن ابتـدع في الإسـلام بدعـة يراهـا حسـنة، فقـد زعـم أن محمـدًا صـلى الله عليـه وسـلم، خـان الرسـالة ؛ لأن الله يقـول: {اليـوم أكملـت لكم دينكم} فما لم يكن يومئذ دينًا فلن يكون اليوم دينًا.

والتحذير من الابتداع، كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة:

قـال حذيفـة بـن اليمـان: كـل عبـادة لم يتعبـدها أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم فلا تعبدوها.

وقال ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق.

والسـؤال الـذي ينبغـي أن يوجـه لمـن اخـترع هـذه الأذكـار: هـل فعـل هـذا رسـول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل فعل هذا أصحابه رضوان الله عليهم؟

6- استعمال السبحة:

وقـال الشـيخ: «**وقـد أجبنـا عنـه في المأخـذ الثـاني بمـا سـبق، فـلا جـرم أن التسـبيح في اليـد أفضـل إلا إذا كانـت مصـلحة الـورد الطويـل تقتضـي سـوى ذلـك وقصـارى الأمر الجواز**».

لا شك أن السبحة موضع خلاف بين أهل العلم، ولكن استعمال المباح في بعض الأوقات بطريقة ملتوية ومبتدعة قد يحول المباح إلى منكر مرفوض، الشيخ محمد صالح المنجد في إجابته عن حكم استعمال السبحة: ذهب بعض العلماء في مسألة السبحة إلى جواز استعمالها مع قولهم بأنّ التسبيح باليد أفضل، وعدّها بعضهم من البدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وربما تظاهر أحدهم بوضع السجادة على منكبه وإظهار المسابح في يده وجعله من شعار الدين والصلاة. وقد علم بالنقل المتواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يكن هذا شعارهم، وكانوا يسبحون ويعقدون على أصابعهم، كما جاء في الحديث «اعقدن بالأصابع فإنهن مسؤولات مستنطقات»، وربما عقد أحدهم التسبيح بحصى أو نوى. والتسبيح بالمسابح من الناس من كرهه ومنهم من رخّص فيه لكن لم يقل أحد: إن التسبيح به أفضل من التسبيح بالأصابع وغيرها.ا.هـ. ثمّ تكلّم رحمه الله عن مدخل الرياء في التسبيح بالمسبحة وأنّه رياء بأمر ليس بمشروع وهو أسوأ من الرياء بالأمر المشروع. [مجموع الفتاوى (187/22)].

وفي سؤال لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين عن التسبيح بالمسبحة هل هي بدعة؟ أجاب: التسبيح بالمسبحة تركه أولى وليس ببدعة؛ لأن له أصلاً وهو تسبيح بعض الصحابة بالحصى، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أرشد إلى أن التسبيح بالأصابع أفضل وقال: «اعقدن – يخاطب النساء – بالأنامل فإنهن مستنطقات»، فالتسبيح بالمسبحة ليس حرامًا ولا بدعة، لكن تركه أولى؛ لأن الذي يسبح بالمسبحة ترك الأولى، وربما يشوب تسبيحه شيء من الرياء؛ لأننا نشاهد بعض

الناس يتقلد مسبحة فيها ألف خرزة كأنما يقول للناس: انظروني إني أسبح ألف تسبيحة، ثالثًا: أن الذي يسبح بالمسبحة في الغالب يكون غافل القلب ولهذا تجده يسبح بالمسبحة وعيونه في السماء وعلى اليمين وعلى الشمال، مما يدل على غفلة قلبه فالأولى أن يسبح الإنسان بأصابعه، والأولى أن يسبح باليد اليمنى دون اليسرى؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعقد التسبيح بيمينه ولو سبح بيديه جميعًا فلا بأس لكن الأفضل أن يسبح بيده اليمنى فقط.ا.هـ. [(اللقاء المفتوح 30/3)].

وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني عند تخريجه لحديث «نعم المذكّر السبحة»:
ثم إن الحديث من حيث معناه باطل عندي لأمور:
الأول: أن السبحة بدعة لم تكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم إنما حدثت بعده صلى الله عليه وسلم، فكيف يعقل أن يحض صلى الله عليه وسلم أصحابه على أمر لا يعرفونه؟ والدليل على ما ذكرت ما روى ابن وضاح في " البدع والنهي عنها" عن الصلت بن بهرام قال: مر ابن مسعود بامرأة معها تسبيح تسبح به فقطعه وألقاه، ثم مر برجل يسبح بحصا فضربه برجله ثم قال: لقد سَبقتم، ركبتم بدعة ظلما، ولقد غلبتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم علما، وسنده صحيح إلى الصلت، وهو ثقة من اتباع التابعين.
الثاني: أنه مخالف لهديه صلى الله عليه وسلم قال عبد الله بن عمرو: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح بيمينه. [السلسلة الضعيفة (110/1)].
وقال أيضًا: ولو لم يكن في السبحة إلا سيئة واحدة، وهي أنها قضت على سنة العد بالأصابع أو كادت مع اتفاقهم على أنها أفضل لكفى فإني قلما أرى شيخا

يعقــد التســبيح بالأنامــل!». [السلســلة الضــعيفة (117/1)]. [انتهــى مــن موقــع الإسلام سؤال وجوب].

ولنعتـبر بمـا جـاء عـن عبـد الله بـن مسـعود رضـي الله، فيمـا رواه الـدارمي في سـننه أن أبا موسـى الأشـعري قـال لعبـد الله بـن مسـعود: يا أبا عبـد الـرحمن إني رأيـت في المسـجد آنفًـا أمـرًا أنكرتـه ولم أر والحمـد لله إلا خـيرًا. قـال فمـا هـو؟ فقـال: إن عشـت فسـتراه. قـال: رأيـت في المسـجد قومًـا حِلقًـا جلوسًـا ينتظـرون الصـلاة في كـل حلقـة رجـل وفي أيـديهم حصـى، فيقـول كـبروا مائـة فيكـبرون مائـة فيقـول هللـوا مائـة فيهللـون مائـة ويقـول سـبحوا مائـة فيسـبحون مائـة. قـال: فمـاذا قلـت لهـم؟ قـال: مـا قلـت لهـم شـيئًا؛ انتظـار رأيـك وانتظـار أمـرك. قـال: أفـلا أمـرتهم أن يعـدوا سـيئاتهم، وضـمنت لهـم أن لا يضـيع مـن حسـناتهم. ثم مضـى ومضـينا معـه حـتى أتـى حلقـة مـن تلـك الحلـق، فوقـف علـيهم، فقـال مـا هـذا الـذي أراكـم تصـنعون؟ قـالوا: يا أبا عبـد الـرحمن حصـى نعـد بـه التكبـير والتهليـل والتسـبيح. قـال: فعـدوا سـيئاتكم، فـأنا ضـامن أن لا يضـيع مـن حسـناتكم شـيء، ويحكـم يا أمـة محمـد مـا أسـرع هلكـتكم! هـؤلاء صـحابة نبـيكم صـلى الله عليـه وسـلم متـوافرون، وهـذه ثيابـه لم تبـلَ وآنيتـه لم تكسـرَ، والـذي نفسـي بيـده إنكـم لعلـى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه.
فلـيس كـل مـن أراد الخـير أصـابه ووفـق لـه، ولـيس كـل عبـادة متقبلـة، حـتى تكـون علـى سـنة محمـد صـلى الله عليـه وسـلم. وهـذا الإنكـار مـن ابـن مسـعود رضـي الله عنـه يقضـي علـى حجـة أهـل الاخـتراع والابتـداع، فـإنهم دائمـا يقولـون: وأي مـانع مـن الأذكـار والصلوات والقرآن؟! ونحن لا نريد بها إلا الخير والتقرب إلى الله.

فيقال لهم: إن العبادة يجب أن تكون مشروعة في أصلها وفي هيئتها وكيفيتها، وما كان منها في الشريعة مقيدًا بعدد لم يكن لأحد أن يتجاوزه، وما كان مطلقا لم يكن لأحد أن يخترع له حدًّا، فيضاهي بذلك الشرع.

وما يؤكد هذا المعنى ما جاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله، فقد رأى رجلا يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، فنهاه، فقال الرجل: يا أبا محمد ! يعذبني الله على الصلاة؟! قال: "لا، ولكن يعذبك على خلاف السنة".

فانظر هذا الفقه من هذا التابعي الجليل رحمه الله. وذلك لأن السنة أن يصلي بعد طلوع الفجر السنة الراتبة ركعتين فقط ولا يزيد، ثم يصلي الفريضة. وقريب من هذا ما جاء عن الإمام مالك رحمه الله، فقد أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله ! من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. (يعني قبر النبي صلى الله عليه وسلم). قال: " لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة ".

فقال: وأي فتنة في هذه؟! إنما هي أميال أزيدها. قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! إني سمعت الله يقول: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور / 63].

فهذا فقه الصحابة والتابعين والأئمة، وأما أهل البدع فيقولون: وأي فتنة، إنما هي ذكر وصلاة وأميال نتقرب بها إلى الله !

فلا ينبغي لعاقل أن يغتر بكلام هؤلاء، فإن الشيطان قد زين لهم أعمالهم، وكرهوا أن يخالفوا شيوخهم وأرباب طريقتهم.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

واعلم أنه ما ابتدع إنسان بدعة إلا وترك من السنة مثلها أو أعظم منها، ولهذا تجد أصحاب الأذكار المخترعة أجهل الناس بالأذكار النبوية التي واظب عليها النبي صلى الله عليه وسلم، فقلما يوجد منهم من يقول في صباحه ومسائه: سبحان الله وبحمده مائة مرة، أو يقول: أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. أو يقول: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين اللهم إني أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده. أو يقول: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته. إلى غير ذلك مما يمكنك الوقوف عليه في الكتب المعنية بأذكار الصباح والمساء وغيرها.

7- الاجتماع للذكر والدعاء جماعة عقب الصلوات:

وقال الشيخ: «**وقد اعتمد منكروه على إنكار ابن مسعود المردود، وحديث ابن عباس في الصحيح: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ". يرد عليه... وكان عمر يجمع الناس على قارئ، ولم يفعله عليه الصلاة والسلام فدل ذلك على أن الأمر واسع.. وكان أهل الشام يقرءون جماعة في القرون المفضلة كما يقول الحافظ ابن رجب..**».

لا شك أن ذكر الله تبارك وتعالى من أشرف الأعمال وأفضلها، لكن لا بد من لزوم السنة في أي عبادة حتى تكون مقبولة مرضية عند رب العالمين سبحانه، وإن تجنب

الابتداع في الدين وسلوك طريق النبي وصحابته والتابعين في العبادات من الأمور التي تعين على قبول العمل عند الله سبحانه، وإن الأصل في الأذكار والعبادات التوقيف، وألا يُعبد الله إلا بما شرع، وكذلك إطلاقها أو توقيتها، وبيان كيفياتها، وتحديد عددها فيما شرعه الله من الأذكار والأدعية وسائر العبادات مطلقًا عن التقييد بوقت أو عدد أو مكان أو كيفية، لا يجوز لنا أن نلتزم فيه بكيفية أو وقت أو عدد بل نعبده به مطلقا كما ورد.

وما ثبت بالأدلة القولية أو العملية تقييده بوقت أو عدد، أو تحديد مكان له أو كيفية، عبدنا الله به على ما ثبت من الشرع له، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وقال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ». والخير كل الخير في اتباع هديه صلى الله عليه وسلم وهدي الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والشر كل الشر في مخالفة هديهم واتباع المحدثات التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة». [فتاوى إسلامية 178/4].

ولا مانع من الاجتماع على كتاب الله تعالى في يوم محدد ووقت معيَّن، يتدارس المجتمعون فيه كتاب الله فيما بينهم، ويتعلمون تفسيره وأحكامه، أو يتلونه ويتعلمون تجويده. على أن لا يكون ذلك التحديد لليوم والتعيين للوقت من أجل اعتقاد فضل فيه دون غيره، بل يكون ذلك من أجل كونه وقت فراغ لأفراد الأسرة، أو بسبب وجود من يقوم بالتعليم في ذلك اليوم والوقت، أو نحو ذلك من دواعي تعيين يوم للاجتماع.

فإن كان اجتماعهم على النحو الذي ذكرناه: فلا حرج فيه إن شاء الله، بل هو عمل صالح يؤجرون عليه، ويشرع لك أن تشاركهم فيه. وإن كانوا يعتقدون أن للاجتماع في يوم الخميس بعينه فضيلة خاصة: فهذا مما لا أصل له في الشرع، وينبغي تنبيههم على موطن الخطأ والصواب في عملهم، فيتركون ما لا أصل له في الدين، وما يدخل في باب البدع، ويفعلون ما شرعه الله ورسوله لعباده.

وننبه إلى أنه ليس من هدي السلف – فيما نعلم – أن يقرأ المجتمعون القرآن جميعًا بصوت واحد، فضلاً عن الذكر والتمايل، بل يمكن للمجتمعين التناوب على القراءة أو يقرأ واحد والباقي يستمعون، والأكمل أن يكون مع القراءة تعليم لأحكامه وقراءة في تفسير آياته.

قال ابن الحاج المالكي رحمه الله: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة): فالدراسة المذكورة تُشعر بأنهم لم يجتمعوا على التلاوة صوتًا واحدًا متراسلين؛ لأن المدارسة إنما تكون تلقينًا أو عرضًا، وهذا هو المروي عنهم، وأما الاجتماع على صوت واحد: فليس بمرويٍّ عنهم كما تقدم" [انتهى من المدخل (92/1)].

أما الاجتماع من أجل قراءة الأذكار، فليس له أصل في السنة، بل هو من قبيل الابتداع في هيئة الذكر، والأذكار المشروعة، سواء كانت مطلقة أو مقيدة، هي من العبادات الفردية الخاصة والتي لا يشرع من أجلها اجتماع، لا في يوم له فضل، ولا في غيره مما لا فضل له من باب أولى.

والفـرق بـين الاجتمـاع لقـراءة القـرآن وتعلمـه والاجتمـاع لـذكر الله: أن الأول جـاء في الشـرع مـا يحـث عليـه ويرغـب فيـه، كمـا سـبق ذِكـره والإحالـة عليـه، وأمـا الاجتمـاع لذِكر الله إما بصوت جماعي أو بقيادة أحد في الحلقة: فلا نعلم أصلا لمشروعيته.

ومـا ورد في الشـرع مـن وصـف مجـالس الصـحابة بــ «مجـالس ذِكـر»: فالمقصـود بـه مجـالس علـم، أو مجـالس ذِكـر لكـن كـل واحـد يـذكر ربَّـه وحـده سـرًّا، ومنـه مـا رواه معاويـة رضـي الله عنـه أنَّ رَسُـولَ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ خَـرَجَ عَلَـى حَلْقَـةٍ مِـنْ أَصْـحَابِهِ فَقَـالَ (مَـا أَجْلَسَـكُمْ؟) قَـالُوا: جَلَسْـنَا نَـذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَـدُهُ عَلَـى مَـا هَـدَانَا لِلْإِسْـلَامِ وَمَـنَّ بِـهِ عَلَيْنَـا قَـالَ (آللَّهِ مَـا أَجْلَسَـكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟) قَـالُوا: وَاللَّهِ مَـا أَجْلَسَـنَا إِلَّا ذَاكَ قَـالَ (أَمَـا إِنِّي لَمْ أَسْـتَحْلِفْكُمْ تُهْمَـةً لَكُـمْ وَلَكِنَّـهُ أَتَانِي جِبْرِيـلُ فَـأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَـزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ) [رواه مسلم (2701)].

قـال ابـن الحـاج المـالكي رحمـه الله: «وأمـا خروجـه صـلى الله عليـه وسـلم علـى حلقـة مـن أصـحابه فقـال (مـا أجلسـكم؟) فقـالوا: جلسـنا نـذكر الله: فهـذا أفصـح بالمـراد في الجميـع، وكيـف كـان اجتمـاعهم ؛ لأنهـم لـو كـانوا يـذكرون الله جهـرًا لم يَحـتج صـلى الله عليـه وسـلم إلى أن يسـتفهمهم، بـل كـان يخـبرهم بالحكـم مـن غـير اسـتفهام، فلمـا أن اسـتفهم دلَّ علـى أن ذِكـرهم كـان سـرًّا، وكـذلك جـوابهم لـه صـلى الله عليـه وسـلم بقـولهم: «جلسـنا نـذكر الله» أدل دليـل علـى أنهـم كـانوا يـذكرون الله تعـالى سـرًّا؛ إذ إنـه لـو كـان ذكـرهم جهـرًا لمـا كـان لإخبـارهم بـذلك معنى زائـد؛ إذ إنـه صـلى الله عليـه وسـلم قـد سمـع ذلـك منـهم، فكـان جـوابهم أن يقولـوا جلسـنا لمـا سمعتَـه أو لمـا رأيتَـه منَّـا إلى غـير ذلـك مـن هـذا المعـنى؛ لأنهـم يتحاشـون أن يكـون مـنهم الجـواب لغـير فائـدة، فبـان واتضـح أن ذكـرهم كـان سـرًّا لا جهـرًا علـى مـا روي عـنهم في عبـادتهم، وقـد قـال تعـالى في محكـم التنزيـل (ادْعُـوا ربَّكُـم تَضُـرُّعًا وَخُفْيَـة). أو كـانوا يتـذاكرون بيـنهم مـا كـان مـنهم

في أمر الجاهلية من عبادة الأوثان وغير ذلك، وما منَّ الله عليهم به من معرفة الإيمان والكتاب والسنَّة، فتعظم عندهم النعَم عند تذكر ذلك، فيحمدون الله على ما منَّ به عليهم من تلك النعَم التي يذكرونها، ألا ترى إلى ما روي عنهم أنهم كانوا يقعدون في المسجد بعد صلاة الصبح يتذاكرون بينهم الأشياء التي كانوا يفعلونها في الجاهلية ويتعجبون من أنفسهم والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد يسمعهم فيتبسم أحيانًا من حكاياتهم عن أنفسهم، فقد تكون تلك الحلقة التي خرج صلى الله عليه وسلم عليها قاعدة لذلك المعنى، فحصل لهم ما حصل من المباهاة بها ؛ لأنهم إذا تذاكروا ذلك فيه يعرفون قدر نعَم الله عليهم وأن ما منَّ به عليهم ليس بأيديهم ولا بقدرتهم فتعظم نعَم الله تعالى عليهم أن هداهم وأنقذهم، وأضل غيرهم وأصمهم وأعماهم فهم لا يسمعون ولا يبصرون كما جاء في محكم التنزيل"[انتهى من المدخل (1 /92، 93)].

ولا شك أن الدعاء مع الجماعة (بمعنى أن يدعو أحدهم ويؤمن الباقي) إما أن يكون ثبت ذلك في السنة، كما في الاستسقاء وفي دعاء القنوت. فهذا لا شك أنه مشروع. وإما أن يكون في مواضع لم يثبت فيها ذلك في السنة النبوية، كأدبار الصلوات، أو عقب دفن الميت، أو في عرفة، ونحو ذلك، فهذا لا بأس به إذا فُعل أحياناً، فإن كان ذلك عادة مستمرة كان بدعة.

وإليك طرفاً من كلام أهل العلم في ذلك:

1- سئل الإمام أحمد رحمه الله: هل يكره أن يجتمع القوم يدعون الله ويرفعون أيديهم؟ قال: ما أكرهه للإخوان إذا لم يجتمعوا على عمد إلا أن يكثروا. انتهى.

قال ابن منصور: قال إسحاق بن راهويه كما قال، وإنما معنى: إلا أن يكثروا: إلا أن يتخذوها عادة حتى يكثروا.

وقال أبو العباس الفضل بن مهران: سألت يحيى بن معين وأحمد بن حنبل قلت: إن عندنا قوما يجتمعون فيدعون ويقرءون القرآن ويذكرون الله تعالى فما ترى فيهم؟

قال: فأما يحيى بن معين فقال: يقرأ في المصحف، ويدعو بعد صلاة، ويذكر الله في نفسه. قلت: فأَخٌ لي يفعل هذا قال: انْهه. قلت: لا يقبل. قال: عظه. قلت: لا يقبل ، أهجره؟ قال: نعم.

ثم أتيت أحمد حكيت له نحو هذا الكلام، فقال لي أحمد أيضًا: يقرأ في المصحف، ويذكر الله تعالى في نفسه، ويطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: فأنهاه؟ قال: نعم. قلت: فإن لم يقبل؟ قال: بلى إن شاء الله تعالى، [يعني: سيستجيب إن شاء الله] فإن هذا مُحْدَث ، الاجتماع والذي تصف. قلت: فإن لم يفعل أهجره؟ فتبسم وسكت". [انتهى من الآداب الشرعية (102/2)].

2- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " الاجتماع على القراءة والذكر والدعاء حسن مستحب إذا لم يتخذ ذلك عادة راتبة كالاجتماعات المشروعة، ولا اقترن به بدعة منكرة " [انتهى من مجموع الفتاوى (523/22)].

3- وسئلت اللجنة الدائمة للإفتاء عن إمام يرفع يديه بعد الصلوات المكتوبة والمأمومون كذلك، يدعو الإمام والمأمومون يؤمنون على دعائه. فأجابت: "العبادات مبنية على التوقيف، فلا يجوز أن يقال: هذه العبادات مشروعة من جهة أصلها أو عددها أو هيئتها، أو مكانها إلا بدليل شرعي يدل على ذلك، ولا نعلم سنةً في

ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، لا من قوله، ولا من فعله، ولا من تقريره ".

[انتهى من مجلة البحوث الإسلامية (55/17)].

وسئلت اللجنة الدائمة للإفتاء أيضًا عن شخص كانت عادته أن يطعم الطعام لطائفة من الناس في كل يوم جمعة، وبعد قضاء الطعام لا يتركون أماكنهم ومجالسهم، بل ينتظرون الدعاء لأحد منهم، الذي عينه صاحب الطعام، أن يدعو الله أن يصل ثواب ذلك الطعام إلى أهاليهم الموتى وأقربائهم، وفي أثناء ذلك الدعاء يرفع السائل يده مع الحاضرين وهم يقولون: (آمين)، فهل هذا الدعاء الذي ترفع فيه الأيدي جماعة بعد الطعام جائز أم لا؟

فأجابت: "الدعاء الجماعي بعد الطعام بالكيفية المذكورة لا أصل له في الشرع المطهر، فالواجب تركه ؛ لأنه بدعة، والاكتفاء بما جاءت به السنة من الدعاء لصاحب الطعام بالبركة ونحو ذلك، كل شخص يقوله بمفرده، ومما جاء في السنة قول: (اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم) وقول: (أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة). [انتهى من فتاوى اللجنة الدائمة (190/24)].

8- التوسل والتبرك والاستغاثة بغير الله:

وقال الشيخ: «**وهي مسألة كتب فيها الكثير وكادت أن تصل إلى حد التكفير على الرغم من حديث الأعمى، وهو حديث كما يقول الحاكم صحيح على شرط الشيخين، وأقر الشيخ تقي الدين ابن تيمية بصحته، إلا أنه تأوله وهذا الحديث أصل ولم ينقل عن أحد من الأئمة إنكاره وصح عن الإمام أحمد نصًّا**

التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال المرداوي ولو لم يكن له أصل لكفاه أنه لا يوجد نص واحد بخلافه إلا عمومات لا تنهض دليلاً»...

وقال الشيخ: وهذا هي الطامة الكبرى والكارثة الجلى، فهي من نواقض الإسلام عندهم، حتى ولو كانت برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد بنوا عليها قاعدة الاستغاثة بغيره تعالى في ما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا فجعلوا الاستغاثة بالأصنام كالاستغاثة بسيد الأنام؛مرددين {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة- الآية} إلى غير ذلك من الآيات التي استشهد بها في غير محلها واستدل بها في غير مدلولها، متناسين حديث صحيح مسلم في ترحُّمه على عامر بن الأكوع، وقول عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم: هلا أمتعتنا به يطلب منه أن يطيل عمره"..

وحديث مالك الدار الذي فيه استغاثة رجل به عليه الصلاة والسلام بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى قائلا: استسق لأمتك. وذكر ذلك لعمر، وما أنكره ولم ينكره أحد من الصحابة. وهذا الحديث صححه الحافظ ابن حجر والحافظ ابن كثير...».

أما عن حديث أن أعمى أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يكشف عن بصري، فقال: فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي) فهذا الحديث اختلف أهل العلم في صحته، فمنهم من قال: إنه ضعيف، ومنهم من قال: إنه حسن، ولكن له وجهة ليست كما يتبادر من اللفظ، فإن هذا الحديث معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذا الرجل الأعمى أن يتوضأ، ويصلي ركعتين ليكون صادقاً في طلب شفاعة النبي

صلى الله عليه وسلم له، وليكون وضوؤه، وصلاته عنواناً على رغبته في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فإذا صدقت النية، وصحت، وقويت العزيمة فإن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع له إلى الله عز وجل ؛ وذلك بأن يدعو النبي صلى الله عليه وسلم له. فإن الدعاء نوع من الشفاعة، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شَفَّعهم الله فيه).

فيكون معنى هذا الحديث أن هذا الأعمى يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله له؛ لأن هذا الدعاء نوع شفاعة. أما الآن وبعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فإن مثل هذه الحال لا يمكن أن تكون لتعذر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأحد بعد الموت، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) أخرجه مسلم.

والدعاء بلا شك من الأعمال التي تنقطع بالموت؛ بل الدعاء عبادة، كما قال الله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر/60]، ولهذا لم يلجأ الصحابة رضي الله عنهم عند الشدائد وعند الحاجة إلى سؤال النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لهم ؛ بل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قحط المطر: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون) وطلب من العباس رضي الله عنه أن يدعو الله عز وجل بالسقيا فدعا فسقوا.

وهـذا يـدل علـى أنـه لا يمكـن أن يطلـب مـن رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بعـد موتـه أن يـدعو لأحـد؛ لأن ذلـك متعـذر لانقطـاع عملـه بموتـه صـلوات الله وسـلامه عليـه ؛ وإذا كـان لا يمكـن لأحـد أن يطلـب مـن النـبي صـلى الله عليـه وسـلم أن يـدعو لـه بعـد مـوت النـبي صـلى الله عليـه وسـلم فإنـه لا يمكـن ومـن باب أولى أن يـدعو أحـد النـبيَّ صـلى الله عليـه وسـلم نفسـه بشـيء مـن حاجاتـه أو مصـالحه؛ فـإن هـذا مـن الشـرك الأكـبر الـذي لا يغفـره الله؛ والـذي حـرم الله علـى مـن اتصـف بـه الجنـة، قـال الله تعـالى: (وَلَا تَـدْعُ مِـنْ دُونِ اللَّهِ مَـا لَا يَنْفَعُـكَ وَلَا يَضُـرُّكَ فَـإِنْ فَعَلْـتَ فَإِنَّـكَ إِذًا مِـنْ الظَّـالِمِينَ) يـونس/106. وقـال تعـالى: (فَـلَا تَـدْعُ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًـا آخَـرَ فَتَكُـونَ مِـنْ الْمُعَـذَّبِينَ) الشعراء/213 ؛ وقـال الله عـز وجـل: (وَمَـنْ يَـدْعُ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًـا آخَـرَ لَا بُرْهَـانَ لَـهُ بِـهِ فَإِنَّمَـا حِسَـابُهُ عِنْـدَ رَبِّـهِ إِنَّـهُ لَا يُفْلِـحُ الْكَـافِرُونَ) المؤمنـون/117؛ وقـال تعـالى: (إِنَّـهُ مَـنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار) [المائدة/72].

فـالمهم أن مـن دعـا رسـولَ الله صـلى الله عليـه وسـلم بعـد وفاتـه أو غـيره مـن الأمـوات لـدفع ضـرر أو جلـب منفعـة فهـو مشـرك شـركاً أكـبر مخرجـاً عـن الملـة، وعليـه أن يتـوب إلى الله سـبحانه وتعـالى، وأن يوجـه الـدعاء إلى العلـي الكبـير الـذي يجيـب دعـوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

وإني لأعجـب مـن قـوم يـذهبون إلى قـبر فـلان وفـلان يدعونـه أن يفـرج عـنهم الكـربات ويجلـب لهـم الخـيرات وهـم يعلمـون أن هـذا الرجـل كـان في حـال حياتـه لا يملـك ذلـك، فكيـف بعـد موتـه، بعـد أن كـان جثـة وربمـا يكـون رميمـاً قـد أكلتـه الأرض فيـذهبون يدعونـه، ويتركـون دعـاء الله عـز وجـل الـذي هـو كاشـف الضـر، وجالـب النفـع والخـير، مـع أن الله تعـالى أمـرهم بـذلك وحـثهم عليـه فقـال: (وَقَـالَ رَبُّكُـمْ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُـمْ)

[غافر/60]. وقال الله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [البقرة/186]. وقال تعالى منكراً على من دعا غيره: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ) [النمل/62]. [انتهى من مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (274/2)].

فالحديث لا يدل على جواز التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم كما ذهب إليه البعض، بل الحديث يدل على أن هذا الرجل توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فقوله: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد) أي: بدعاء نبينا محمد، وقوله: (يا محمد إني أتوجه بك إل ربي) أي: بدعائك. ويدل على هذا:

1- أن هذا الرجل، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يدعو له، ولو كان مراده التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم لقعد في بيته، وقال: اللهم إني أتوسل إليك وأسألك بجاه محمد.

2- من جملة الدعاء الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم: (اللهم فشفعه فيّ، وشفعني فيه) أي: اقبل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيّ، والشفاعة هي الدعاء، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا له. وقوله: (وشفعني فيه) أي: اقبل دعائي أن تقبل دعاءه.

قال الألباني رحمه الله: "إن مما علم النبي صلى الله عليه وسلم الأعمى أن يقوله: (وشفعني فيه) أي: اقبل شفاعتي أي دعائي في أن تقبل شفاعته صلى الله عليه وسلم أي دعاءه في أن ترد علي بصري. هذا الذي لا يمكن أن يفهم من هذه الجملة سواه.

ولهذا ترى المخالفين يتجاهلونها ولا يتعرضون لها من قريب أو من بعيد، لأنها تنسف بنيانهم من القواعد، وتجتثه من الجذور، وإذا سمعوها رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشي عليه. ذلك أن شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأعمى مفهومة، ولكن شفاعة الأعمى في الرسول صلى الله عليه وسلم كيف تكون؟ لا جواب لذلك عندهم البتة، ومما يدل على شعورهم بأن هذه الجملة تبطل تأويلاتهم أنك لا ترى واحدا منهم يستعملها، فيقول في دعائه مثلا: اللهم شفع فيّ نبيك وشفعني فيه" انتهى. [كتاب التوسل ص (68-93)].

ولا يجوز طلب الدعاء أو الشفاعة من الميت، وخاصة عند قبره ؛ لأنه يكون عنده أشد تعلقًا به، وهذا من البدع المنكرة والوسائل المفضية إلى الشرك وسؤال غير الله، وقد يصل به الحال إلى الشرك الأكبر المخرج عن الملة، وهو يحصل كثيرا في هؤلاء ؛ لشدة تعلقهم بالميت.

والشفاعة إنما تطلب من الله، لا من المخلوقين، ويأذن الله في الشفاعة لمن يشاء من عباده الصالحين ويرضى، وذلك لا يكون إلا يوم القيامة. قال الله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّه) يونس/18، وقال تعالى: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) [الزمر/43-44].

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا

يُنَبِّئُـكَ مِثْـلُ خَبِـيرٍ) [فـاطر14/13]، وقـد روى البخـاري (1010) عَـنْ أَنَـسِ بْـنِ مَالِـكٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ أَنَّ عُمَـرَ بْـنَ الْخَطَّـابِ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ كَـانَ إِذَا قَحَطُـوا اسْتَسْـقَى بِالْعَبَّـاسِ بْـنِ عَبْـدِ الْمُطَّلِـبِ فَقَـالَ: " اللَّهُـمَّ إِنَّا كُنَّـا نَتَوَسَّـلُ إِلَيْـكَ بِنَبِيِّنَـا فَتَسْـقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا " قَالَ: فَيُسْقَوْنَ.

فلـو كـان طلـب الشـفاعة والتوسـل بالأمـوات جـائزا لمـا عـدل الصـحابة رضـي الله عـنهم عن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والاستشفاع به إلى العباس رضي الله عنه.

وهـذا أمـر متفـق عليـه بـين علمـاء المسـلمين قـديما وحـديثا، لا خـلاف بيـنهم فيـه، إنمـا يخالف فيه من لا يعتد بخلافه من أهل البدع.

ومـن المنقـول عـن أهـل العلـم في ذلـك: قـال شـيخ الإسـلام رحمـه الله: «لَـيْسَ فِي الـزِّيَارَةِ الشَّـرْعِيَّةِ حَاجَـةُ الْحَـيِّ إلَى الْمَيِّـتِ وَلَا مَسْـأَلَتُهُ وَلَا تَوَسُّـلُهُ بِـهِ ؛ بَـلْ فِيهَـا مَنْفَعَـةُ الْحَـيِّ لِلْمَيِّـتِ كَالصَّـلَاةِ عَلَيْـهِ، وَاَللَّهُ تَعَـالَى يَـرْحَمُ هَـذَا بِـدُعَاءِ هَـذَا وَإِحْسَـانِهِ إلَيْـهِ وَيُثِيـبُ هَـذَا عَلَى عَمَلِهِ " انتهى. [مجموع الفتاوى" (27 / 71)].

وقـال أيضًـا رحمـه الله: "ومـا يفعلونـه مـن دعـاء المخلـوقين كالملائكـة أو كالأنبيـاء والصـالحين الـذين مـاتوا مثـل دعـائهم مـريم وغيرهـا وطلـبهم مـن الأمـوات الشـفاعة لهـم عند الله لم يبعث به أحد من الأنبياء " انتهى. [الجواب الصحيح (5 / 187)].

وقـال أيضًـا: «الثَّانِيَـةُ: أَنْ يُقَـالَ لِلْمَيِّـتِ أَوْ الْغَائِـبِ مِـنْ الْأَنْبِيَـاءِ وَالصَّـالِحِينَ: أُدْعُ اللَّهَ لِي أَوْ أُدْعُ لَنَـا رَبَّـك أَوْ اسْـأَلْ اللَّهَ لَنَـا كَمَـا تَقُـولُ النَّصَـارَى لِمَـرْيَمَ وَغَيْرِهَـا، فَهَـذَا أَيْضًـا لَا يَسْـتَرِيبُ عَـالِمٌ أَنَّـهُ غَيْـرُ جَـائِزٍ وَأَنَّـهُ مِـنْ الْبِـدَعِ الَّـتِي لَمْ يَفْعَلْهَـا أَحَـدٌ مِـنْ سَـلَفِ الْأُمَّـةِ، فلَـيْسَ مِـنْ الْمَشْـرُوعِ أَنْ يُطْلَـبَ مِـنْ الْأَمْـوَاتِ لَا دُعَـاءٌ وَلَا غَيْـرُهُ. وَفِي مُوَطَّـأِ مَالِـكٍ أَنَّ ابْـنَ عُمَـرَ كَـانَ يَقُـولُ: " السَّـلَامُ عَلَيْـك يَا رَسُـولَ اللَّهِ السَّـلَامُ عَلَيْـك يَا أَبَا بَكْـرٍ السَّـلَامُ

عَلَيْك يَا أَبَتِ " ثُمَّ يَنْصَرِفُ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: رَأَيْت عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقِفُ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. وَكَذَلِكَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَغَيْرُهُ نُقِلَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا أَرَادُوا الدُّعَاءَ اسْتَقْبَلُوا الْقِبْلَةَ يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَدْعُونَ مُسْتَقْبِلِي الْحُجْرَةِ.

وَمَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ - مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ - وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الرَّجُلَ إذَا سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ " انتهى [مجموع الفتاوى" (1 / 351-352)].

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله:

" لا يجوز أن تطلب منه الشفاعة ولا غيرها كسائر الأموات ؛ لأن الميت لا يطلب منه شيء وإنما يدعى له ويترحم عليه إذا كان مسلما، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: « زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة ». فمن زار قبر الحسين أو الحسن أو غيرهما من المسلمين للدعاء لهم والترحم عليهم والاستغفار لهم كما يفعل مع بقية قبور المسلمين - فهذا سنة، أما زيارة القبور لدعاء أهلها أو الاستعانة بهم أو طلبهم الشفاعة - فهذا من المنكرات، بل من الشرك الأكبر " انتهى. [مجموع فتاوى ابن باز" (6 / 367)].

وقال: " لا يجوز لأحد أن يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم الشفاعة ؛ لأنها ملك الله سبحانه، فلا تطلب إلا منه، كما قال تعالى: (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) فتقول: " اللهم شفع في نبيك، اللهم شفع في ملائكتك، وعبادك المؤمنين، اللهم شفع في أفراطي " ، ونحو ذلك. وأما الأموات فلا يطلب منهم شيء، لا الشفاعة

ولا غيرها، سواء كانوا أنبياء أو غير أنبياء " انتهى. [مجموع فتاوى ابن باز" (16 / 105)].

واعلم بأن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال الله تعالى في قصة موسى: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} [سورة القصص:15]. وإن الناس لم يستغيثوا بهؤلاء الأنبياء الكرام ليزيلوا عنهم الشدة، ولكنهم يستشفعون بهم عند الله عز وجل ليزيل هذه الشدة، وهناك فرق بين من يستغيث بالمخلوق ليكشف عنه الضرر والسوء، ومن يستشفع بالمخلوق إلى الله ليزيل الله عنه ذلك، وهذا أمر جائز كما أن الصحابة رضي الله عنهم يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في حياته أن يدعو الله لهم، وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف الصالح على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف بدعائه نفسه؟

ولا بأس أن تأتي لرجل صالح تعرفه وتعرف صلاحه فتسأله أن يدعو الله لك، وهذا حق إلا أنه لا ينبغي للإنسان أن يتخذ ذلك ديدناً له كلما رأى رجلاً صالحاً قال ادع الله لي، فإن هذا ليس من عادة السلف رضي الله عنهم، وفيه اتكال على دعاء الغير، ومن المعلوم أن الإنسان إذا دعا ربه بنفسه كان خيراً له لأنه يفعل عبادة يتقرب بها إلى الله عز وجل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله، فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، ولا بملك مقرب، ولا نبي مرسل، ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين،

والأربعـون إلى السـبعة، والسـبعة إلى الأربعـة، والأربعـة إلى الغـوث، فهـو كـاذب ضـال مشـرك، فقـد كـان المشـركون كمـا أخـبر الله تعـالى عـنهم بقولـه: {وإذا مسـكم الضـر في البحـر ضـل مـن تـدعون إلا إياه}، وقـال سـبحانه وتعـالى: {أمَّـن يجيـب المضـطر إذا دعـاه} فكيـف يكـون المؤمنـون يرفعـون إليـه حـوائجهم بعـده بوسـائط مـن الحُجَّـاب وهـو القائـل تعـالى: {وإذا سـألك عبـادي عـني فـإني قريـب أجيـب دعـوة الـداع إذا دعـان فليسـتجيبوا لي وليؤمنـوا بي لعلهـم يرشـدون}، وقـد علـم المسـلمون كلهـم أنـه لم يكـن عامـة المسـلمين ولا مشـايخهم المعروفـون يرفعـون إلى الله حـوائجهم، لا ظـاهرا ولا باطنـا، بهـذه الوسـائط والحجـاب، فتعـالى الله عـن تشـبيهه بالمخلـوقين مـن الملـوك وسـائر مـا يقولـه الظـالمون علـوا كبـيرا، وهـذا مـن جـنس دعـوى الرافضـة أنـه لا بـد في كـل زمـان مـن إمـام معصـوم يكـون حجـة الله علـى المكلفـين، لا يـتم الإيمـان إلا بـه، بـل هـذا الترتيـب والأعـداد تشـبه مـن بعـض الوجـوه ترتيـب الإسماعيليـة والنصـيرية ونحـوهم في السـابق والتـالي والنـاطق والأسـاس والجسـد وغـير ذلـك مـن الترتيـب الـذي مـا نـزل الله بـه مـن سلطان» [انتهى باختصار من مجموع فتاوى ابن تيمية (11/433-444)].

9- اتخاذ الشيخ:

وقـال الشـيخ: «**وهـذه مسـألة عنـد العلمـاء لا تخـرج عـن مسـألة الصـحبة المـدلول عليهـا بحـديث سـلمان وأبي الـدرداء؛ حيـث بات معـه، فكلمـا قـام للصـلاة أمـره بالعـودة للنـوم وذلـك حـين بلغـه أنـه يطيـل القيـام والصـيام، وقـد بـنى الفقهـاء علـى هـذا الحـديث مسـألة جـواز إفطـار الصـائم في التطـوع بأمـر الشـيخ. قـال في المختصـر (إلا لأمـر كوالـد وشـيخ وإن لم يحلفـا). وفي الشـروح «وأمـر شـيخ الصـوفية أولى». وكمـا أن الفقـه يحتـاج إلى شـيخ لإرشـاد الطالـب إلى مـواطن**

الاشتباه فكذلك حال علم أحوال النفوس وأمراض القلوب يحتاج فيه إلى شيخ قد عرف أحوال التقوى وسبر حالات النفوس وخبرها».

لا شك أن طلب العمل على أيدي العلماء الربانين، والصبر على تحصيله، والعمل به، من أجلّ العبادات والأعمال الصالحات، وبه ينال العبد رفيع الدرجات عند رب الأرض والسماوات، ويجب على كل عبد يقصد رضا ربه أن يرجع إلى العلماء، ويتربى على أيديهم، وينهل من علمهم، ويتخذهم قدوة في دينه من غير غلو ولا مجافاة، وباتباع لا ابتداع، ولكن تختلف التوجهات والمقاصد مختلفة، وتتعدد المشارب على الساحة بين دعوات حق للرجوع للعلماء الثقات وأخرى باطلة تدعو للتقليد المطلق وتقديس الشيخ، فالأولى دعوات تبني، والأخرى دعوات هدامة، ودعوات على بصيرة من السنة الصحيحة وأخرى من أوهام البدعة والخرافات.. هناك فارق بين اتخاذ الشيخ والتعلم منه وطاعته في المعروف دون تقديسه عند السنة، وبين التقديس والمبالغة والطاعة العمياء عند مبتدعة الصوفية.

إن كل إمام من الصوفية وكل شيخ من شيوخ طرقها من الأئمة المضلين، ضرب سورًا على أتباعه يحرسهم من فتنة الفقهاء المقلدين -وهذا وصف علماء السنة عندهم-، فلا يمكن أن يسألوهم عن شيء، ولا أن يأخذوا منهم شيئًا من العلم، وهؤلاء الأئمة المضلون دعوا إلى تقديس القبور، والرقص، واعتقاد وحدة الوجود، وتقديس زنادقة الصوفية كابن عربي الحاتمي، وتعاطي الأوراد المبتدعة والاستمداد من الشيوخ، والاستغاثة بهم... إلى غير ذلك من سبل الغواية وطرق الضلال.

قال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: « إن واقع النفسية الجماعية.. عند هؤلاء الذين يسقطن صرعى في أيدي المتصوفة يقرر أنهم نفوس عاجزة متهورة.. ضلت الطريق إلى السند الأول والأخير.. وهو التوحيد، والإيمان العميق بالله وحده، وبرسوله (، وحينما التمسوا غير الله سندًا ازداد عجزهم، وسألوا غيره أمنًا فازدادوا خوفًا، ولجئوا إلى سواه هربًا من القلق فازدادوا جنونًا!

هؤلاء يتحولون إلى مجانين اكتمل جنونهم بكل المقاييس.. مطحونين بين آمال دفينة في كياناتهم لا تتحقق.. ليس هذا فقط، وإنما يحذرون أن يكشفوا عنها.. فلابد أن يظهروا الزهد.. ورغبات ظنوا أنها باتت على أطراف أناملهم، فإذا بالأيام تمضي دون أن ينتهي بهم الطريق إلى شيء! ويزداد تعلقهم بشيوخهم.. موتاهم وأحيائهم.. يقطعون الليل في تلاوة الأوراد، ويلهثون نهارًا جريًا خلف مسيرة الأقطاب! تمزقهم اللهفة، وتسحقهم الحيرة.. يسألون هل أصبحوا من الواصلين؟ ومتى يضعون قبضتهم على أسرار الكون؟ فيحولون التراب إلى ذهب؟ ويأكلون الأطعمة اللذيذة، ويتزوجون الجميلات؟

وسياط الأمل في الوصول تطاردهم، وإغراءات المشايخ تدفعهم.. وهم يتساقطون من الداخل يومًا بعد يوم.. حسرة على أحلام بدا واضحًا أنها لن تتحقق، وأوهام أصبحوا أسرى قيودها.. تزداد حلقاتها ضغطًا كل لحظة.. وقنوط امتزج بجثة رجاء مشلول.. يموت قطعة بعد قطعة!

فيتحولون إلى المرحلة الثانية.. محاولة إدراك الآخرة مادامت الدنيا قد أفلتت منهم، وحتى هذه ليست عن إيمان خالص، ولكنها محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.. ثمنًا للعمر الذي ضاع في أوهام، وضح بعد فوات الأوان أنها كاذبة.

بعضهم تتخلخل صلته بمشايخه في هذه المرحلة، ويفلت إلى كل موبقات الدنيا.. يعب منها قبل أن يفقد القدرة حتى على ارتكاب المعاصي.

وبعضهم يزداد التصاقًا بالشيوخ، والتمرغ تحت أقدام الأقطاب.. أملاً في الآخرة، فهو لا يريد أن يخسر الدارين، ويزداد جنونًا ويستغرق في أحلام اليقظة، ويقبل على التلفيق، وفي زحمة عشرات النوازع التي تنتابه يهرف أو يخرف.. فينسب لنفسه كرامات يلفقها أو يتخيلها.. صيانة لنفسه من الضياع.

تلك هي مرحلة الانسحاق الكامل لهذا الإنسان المحبط.. الذي أعطى حياته للأوهام.. فليس أمامه إلا أن يغرق فيها ليستريح.. فيهيم ضالاً ومضللاً.. ينسج الخرافات، ويستمع إليها ويفلسفها ويبررها ويطرب لها.» [الصوفية الوجه الآخر 5/1].

وقد أكثر أرباب التصوف الإشادة بشأن الشيخ، ووجوب اقتداء المريد به، ومن أقوالهم في ذلك ما قاله أبو عبد الرحمن السلمي يقول: «من لم يتأدب بشيخ فهو بطّال، ومن لم يلحقه نظر شيخ وشفقته لا يجيء منه شيء» [تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ص160].

وقال القشيري: «من لم يكن له أستاذ لم يفلح أبدًا. هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان» [الرسالة للقشيري 735/2].

وقال ذو النون المصري: «طاعة مريد شيخه، فوق طاعته ربه» [تذكرة الأولياء 171/1].

وبهذه الأفكار عزز الصوفية مكانة الشيخ في حياة المريد، فصار له كالقارب في البحر، يحمله في سفره، فلا بد له من الاعتناء بأمره وأحواله، وعدم مخالفته أبدًا،

ولو بقلبه، قال القشيري: « ومن شرطه أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه... ثم يجب حفظ سره إلا عن شيخه، ولو كتم نفسًا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه، فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته، إما بسفر يكلفه أو أمر يراه» [الرسالة للقشيري 736/2 - 737].

قلت: وما أشبه هذا الكلام بما يفعله ضُلال النصارى مع قساوستهم من التسليم للقس والاعتراف له!!!

يروي الصوفية أنه زار أبو تراب النخشبي وشقيق البلخي أبا يزيد البسطامي، فلما قدم خادمه السفرة قالا له: كُلْ معنا يا فتى، فقال: لا، إني صائم، فقال له أبو تراب: كُلْ، ولك أجر صوم شهر!! فقال: لا، فقال له شقيق: كُلْ ولك أجر صوم سنة!! فقال: لا، فقال أبو يزيد: دعوا من سقط من عين رعاية الله عز وجل، فسرَق ذلك الشاب بعد سنة فقُطعت يده عقوبة له على سوء أدبه مع الأشياخ!! وسمعت شيخنا برهان الدين بن أبي شريف يقول: "من لم ير خطأ شيخه أحسن من صوابه هو لم ينتفع به"!! [الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني ص114- 155].

إن الشيخ عند الصوفية أقرب إلى الإله، يسبغون عليه كل صفات الألوهية، والمريد الذي لا يعتقد بشيخه القدسية الإلهية لا يفلح في سعيه إلى الوصول إلى وحدة الوجود، وهذا هو معنى الفلاح عندهم، الجذبة، ثم مشاهدة الألوهية في نفس المشاهَد وفي كل شيء. ولنستمع إلى قول الدكتور سيد حسين نصر، وهو من

أعلام الصوفية في إيران، يقول: «إن دور الشيخ المرشد الذي يقتضي التسليم التام له، وأهميته، في تحرير المريد من الارتباك في عالم الكثرة، ثم توجيهه له بالتأمل في عالم الوحدة». [الصوفية بين الأمس واليوم، (ص:77)].

10- زيارة قبور الصالحين والسفر لها:

وقال الشيخ: «**ومعروف أن زيارة قبور الصالحين من القضايا التي يهتم بها الصوفية، وأن جمهور علماء الأمة على جواز ذلك، بل واستحبابه لدخوله في الأمر العام، وأنه لا فرق بين الركوب والمشي، وأن حديث: «لا تشد الرحال..»، خاص بالمساجد فيمن نذر أن يصلي في مسجد فلا يلزمه الانتقال إليه إلا أن يكون أحد هذه المساجد المنصوص عليها.**

قال الحافظ ابن الجزري: «إن قبور الأنبياء والصالحين مظنة استجابة الدعاء. وإن هذه الزيارة يجب أن تتسم بالآداب الشرعية من خشوع ودعاء لهم وللمسلمين دون أبهة جماعية، حتى لا يقع الزائر في النهي المشار إليه في قوله: «لا تتخذوا قبري عيدًا» رواه أبو داوود في سننه.. ».

لقد كان الأمر في صدر الإسلام على منع زيارة القبور، لقرب عهدهم بالجاهلية؛ حماية لحمى التوحيد، وصيانة لجنابه، ولما حسن الإيمان، وعظم شأنه في الناس، ورسخ في القلوب واتضحت براهين التوحيد، وانكشفت شبهة الشرك جاءت مشروعية زيارة القبور محددة أهدافها موضحة مقاصدها. فعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» [رواه مسلم 977].

وعــن أبي هريــرة رضــي الله عنــه قــال: قــال النــبي صــلى الله عليــه وســلم: «زوروا القبــور؛ فإنها تذكّر الموت» [مسلم 975].

وعــن أبي ســعيد الخــدري رضــي الله عنــه قــال رســول الله صــلى الله عليــه وســلم: « إني نهيــتكم عــن زيارة القبــور فزوروهــا، فــإن فيهــا عــبرة» [مســند أحمــد (38/3)، ومســتدرك الحاكم (531/1)].

وعــن أنــس بــن مالــك رضــي الله عنــه قــال: قــال رســول الله صــلى الله عليــه وســلم: « كنــت نهيــتكم عــن زيارة القبــور ألا فزوروهــا؛ فإنهــا تــرق القلــب وتــدمع العــين وتــذكر الآخرة، ولا تقولوا هجرًا» [مستدرك الحاكم (1/ 532)].

وعــن بريــدة رضــي الله عنــه قــال: « كــان رســول الله صــلى الله عليــه وســلم يعلمهــم إذا خرجــوا إلى المقــابر فكــان قــائلهم يقــول: الســلام علــيكم أهــل الــديار مــن المــؤمنين والمســلمين، وإنا إن شــاء الله بكــم للاحقــون، أســأل الله لنــا ولكــم العافيــة » [رواه مسلم 975].

فهــذه الأحاديــث ومــا جــاء في معناهــا تــدل علــى أن مشــروعية زيارة القبــور بعــد المنــع من ذلك إنما كانت لهدفين عظيمين وغايتين جليلتين:

الأولى: التزهيــد في الــدنيا بتــذكر الآخــرة والمــوت والبلــى، والاعتبــار بأهــل القبــور ممــا يزيــد في إيمان الشخص ويقوي يقينه ويعظم صلته بالله، ويذهب عنه الإعراض والغفلة.

الثانيــة: الإحســان إلى المــوتى بالــدعاء لهــم، والــترحم علــيهم، وطلــب المغفــرة لهــم، وســؤال الله العفو عنهم.

هــذا الــذي دل عليــه الــدليل، ومــن ادعــى غــير ذلــك مــن شــطحات وافــتراءات طُولــب بالحجة والبرهان.

ثم إن السنة قد جاءت بالنهي عن أمور عديدة متعلقة بالقبور وزيارتها؛ صيانة للتوحيد وحماية لجنابه، يجب على كل مسلم تعلمها ليكون في أمنة من الباطل وسلامة من الضلال، ومن ذلك:

1 – النهي عن قول الهجر عند زيارة القبور:

والمراد بالهجر كل أمر محظور شرعًا، ويأتي في مقدمة ذلك الشرك بالله بدعاء المقبورين، وسؤالهم من دون الله، والاستغاثة بهم، وطلب المدد والعافية منهم، فكل ذلك من الشرك البواح والكفر الصراح، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث عديدة صريحة في المنع من ذلك والنهي عنه ولعن فاعله، ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس يقول: «ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إِنِّي أنهاكم عن ذلك» [مسلم (532)].

فدعاء الأموات وسؤالهم الحاجات وصرف شيء من العبادة لهم شرك أكبر، أما العكوف عند القبور وتحري إجابة الدعاء عندها، ومثله الصلاة في المساجد التي فيها القبور فهو من البدع المنكرة. ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنه صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي لم يقم منه: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [متفق عليه].

2– الذبح والنحر عند القبور:

فإن كان ذلك تقربًا إلى المقبورين ليقضوا حاجة للشخص فهو شرك أكبر، وإن كان لغير ذلك فهو من البدع الخطيرة التي هي من أعظم وسائل الشرك؛ لقوله صلى الله

عليه وسلم: «لا عقر في الإسلام »، قال عبد الرزاق: « كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة » [سنن أبي داود (3222)].

3، 4، 5، 6، 7- رفعها زيادة على التراب الخارج منها، وتجصيصها، والكتابة عليها، والبناء عليها، والقعود عليها:

فكل ذلك من البدع التي ضلت بها اليهود والنصارى، وكانت من أعظم ذرائع الشرك، فعن جابر رضي الله عنه قال: « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه، وأن يزاد عليه، أو يكتب عليه». [مسلم 970].

8- الصلاة إلى القبور وعندها:

فعن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها»، [رواه مسلم 972].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الأرض كلها مسجد، إلا المقبرة والحمام» [رواه أبو داود والترمذي 3225، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

9 – بناء المساجد عليها:

وهو بدعة من ضلالات اليهود والنصارى وتقدم حديث عائشة: « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

10- اتخاذها عيدًا:

وهو من البدع التي جاء النهي الصريح عنها لعظم ضررها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تجعلوا

بيوتكم قبورًا، وحيثما كنتم فصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني»، [رواه أبو داود 2042].

11 – شد الرحال إليها:

وهو أمر منهي عنه؛ لأنه من وسائل الشرك فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى» [متفق عليه].

وأما السفر إلى مجرد زيارة القبور، فهذا ليس بواجب ولا فرض، فقد اختلفت أقوال علماء المسلمين هل هو منهي عنه أو مباح، والعلماء الذين قالوا: (يستحب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم) لم يستحبوا السفر لزيارة قبره، وإنما يذكرون الحج، ويقولون: يستحب للحاج أن يزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم، إذا انتهى من أعمال نسكه يزور المسجد النبوي فإذا وصل إلى المسجد زار الروضة المشرفة وسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ولا يدعوا عند القبر، بل يستقبل القبلة ويدعو ربه بما يشاء.

ومن هذا يتبين ضلال الصوفية في اتخاذ القبور أعيادًا والتمسح بها والدعاء عندها والطواف بها، والتوسل بالموتى، والسجود إليها، إلى آخر ذلك من الطوام..

11– الوجد والتواجد:

وقال الشيخ: **«وهي مسألة ضبطها محققو الصوفية كسيدي أحمد زروق. فالوجد عند القوم يرتبط بحال المتواجد، فإن كان مغلوبًا على أمره فهو معفو عنه، وإن كان سوى ذلك فعلى الراسخين أن يوجهوه».**

ابتـدع المتصـوفة في حلقـاتهم ألـوانًا مـن الـذكر، وسمـاع الأناشـيد الغزليـة، حـتى جعـل بعضـهم الـرقص والسـماع مـن العبـادات المفضـلة. وكانـت مجـالس الـذكر تُعقـد في الـزوايا والخلوات غالبًا، وربما عقدت في المساجد أحيانًا.

وهـذا نـوع مـن الخلـل في السـلوك والاضـطراب الـذهني حـين يتعبـد بعـض الصـوفية لله بالـرقص والحركـات الـتي لا تمـت إلى عبـادة الله بأيـة صـلة، مـن السـماع والوصـول لحـال الوجـد، وهـذا السـماع المحـدث تحضـره الشـياطين، حـتى إن كثـيرًا مـنهم يغلـب عليـه الوجـد، فيصـعق كمـا يصـعق المصـروع، ويصـيح كصـياحه، ويجـري علـى لسـانه مـن الكلام ما لا يفهم معناه، ولا يكون بلغته كما يجري على لسان المصروع.

لـذلك يعـد سمـاع الأناشـيد والأشـعار الغزليـة مـن البـدع العمليـة عنـد المتصـوفة، ففيهـا ذكـر الهجـر والوصـل، والقطيعـة والشـوق والحـب والعشـق، وفيهـا ذكـر الخمـر والكـؤوس، مـع آلات أو بـدونها مكـاءً وتصـديةً، وفي أثنـاء ذكـرهم، يهتـزون يمينًـا وشمـالاً، يميلـون ويبكـون ويتواجـدون، ويئنـون ويتـأوهون... وينشـد لهـم الحـادي مـن منظومـات العـارفين، وأقوال العاشقين وشيئًا من المدائح النبوية.

قـال الشـيخ سـفر الحـوالي: «حـتى إن بعـض جهلـة الصـوفية فضـل سمـاع القصـائد والأشـعار الـتي توقـف القلـب وتأتي بالـذوق الإيمـاني -كمـا يقـول- عَلَـى سمـاع القُـرْآن مـن سبعة أوجـه، فـذكر منهـا أنـه يلـين القلـب، وأنـه يحرك السـاكن، وأنـه يـتكلم عـن فنـاء الـدنيا، والقـرآن فيـه الحـديث عـن الأحكـام والحـلال والحـرام، أمـا الشـعر فكلـه في الوجـد، وكلـه في المحبـوب، وهـذا يجعلـه ذاكـرًا الله والآخـرة، فهكـذا يقـع الفسـاد الكبـير عنـدما يـترك الإنسَـان الكتـاب والسـنة ويأخـذ عـن الزهـاد والضُـلال والعبـاد ويعـارض بـه

ما جَاءَ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا ينظرون إِلَى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف عبدالله؟ وكيف قام وصلى؟ وكيف أفطر وصام؟ وكيف زكى؟ وكيف كَانَ توكله وأصحابه صلوات الله عليهم أجمعين؟ [شرح العقيدة الطحاوية 548/4].

وتعتبر حلقات الذكر عندهم، من أفضل العبادات، ويرون أن الذاكر جليس الله، وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة، وقد نقل الشعراني عن الحارث المحاسبي أنه كان يقول: (مما يتمتع به الفقراء سماع الصوت الحسن) وفي هذا محدثات جمة من تلاعب الشيطان وتضليل الضالين للعوام، ومنها التواجد والصعق والغشيان ودعوى الاستغراق، والصياح والاضطراب، والاختلاج والإغماء، والموت والشهيق والهيام، فكل ذلك لم يفعله الرسول الكريم ولا الصحابة من بعده، وقد كانوا لله ذاكرين في كل وقت وحين، وكانوا أتقى لله وأخشاهم له.

والتواجد عند الصوفية استجلاب الوجد بالذكر والتفكر، يجتمعون فإما أن يغنوا ويرقصوا ويطربوا أو يقوموا يرددون بعض الأذكار جماعيًّا أو حتى فرديًّا ذكر مخصوص، يزعمون أنهم يستجلبون بذلك -تعالى الله- الروح الإلهية، وأنهم يرتفعون عن هذا العالم، ويحلقون عن هذا الوجود إلى عالم آخر. ولهذا أحيانًا عن طريق هذا الوجد يصلون إلى حالة ما يسمى السكر، فيغيب الواحد عن الحالة الموجودة والناس الموجودين، ويعيش في عالم آخر حتى أحيانًا يزعم أنه بدأ يعيش مع الحضرة الإلهية، وكل هذا مما لبس به الشيطان على هؤلاء.

قال طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ولهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيهم شَبه من اليهود، ومن انحرف من

العُبّـاد ففيـه شـبه مـن النصـارى، ولهـذا تجـد أكثـر المنحـرفين مـن العبـاد مـن المتصـوفة ونحـوهم فيـه شـبه مـن النصـارى، ولهـذا يميلـون إلى نـوع مـن الرهبانيـة، والحلـول والاتحـاد، ونحـو ذلـك، ولهـذا نـرى شـيوخ الصـوفية ومـن انحـرف مـن العُبّـاد عمومًـا يـذمون الكـلام وأهلـه، وشـيوخ أرباب الكـلام يعيبـون طريقـة العبـاد والصـوفية، ويصـنفون في ذم السماع والوجد وكثير من الزهد والعبادة التي أحدثها الصوفية.

ولـذلك كـان خـير السـماع الاسـتماع لكـلام الله وكـلام رسـوله وأنبيائـه وخلفـائهم بلفظـه أو معنـاه؛ فـإن السـامع إذا سمـع القـرآن كـان سماعـه سـببًا للهـدى، فيوجـب الهـدى إن لم يكـن مـانع. وإذا نظـر فيـه وتـدبره كـان ناظـرًا في دليـل هـادٍ يوصـله إلى العلـم والمعرفـة إذا كـان النظـر صـحيحًا، وأهـل السـماع إذا كـان سماعهم للقـرآن ووجـدهم بـه رشـدوا؛ ولهذا حض سبحانه على تدبره وعلى سماعه، فهو أحسن الحديث، وخير الكلام.

12- دعاوى الكشف والاطلاع على الأسرار والخوارق:

وقـال الشـيخ: «**وهـذا الأمـر في أصـله لا إشـكال فيـه، فكرامـات الأوليـاء أمـر يعتقـده أهـل السـنة وهـي دليـل علـى الخـير وقبـول العمـل وقـد يحجـب عنهـا أنـاس فينكرونهـا "وقـد وقـع مـن ذلـك للسـلف الصـالح الشـيء الكثـير". أمـا مـا يقـع مـن الـدعاوى فهـو مـردود علـى أهلـه ومحـاكم بأصـله وقـد أنكـره القـوم أشـد إنكـار. فعـالم الغيـب بالأصـالة هـو البـاري جلـت قدرتـه ولكنـه يعلّمـه لمـن يشـاء مـن عبـاده مـن نـبي مرسـل وملـك وولي والكرامـات لا تخـالف مـأثورا ولا تعـارض مشـهورا، وكـل مـا يخـالف فهـو مـردود، وعـن حيـاض العـارفين مطـرود، قـال ابـن عطـاء الله: (مـا مـن حـال يتحققـه ذو الحـال إلا ويدعيـه ذو المحـال ليهلـك هلـك عـن بينـة ويحيـي مـن حي عن بينة).**

وقال الشيخ: وخلاصة القول: إن الصوفية ليست دينًا خاصًّا، وإنما على نوع من التخصص الوظيفي (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) لمعالجة باطن الإثم وأحوال القلوب طبقا للكتاب والسنة واجتهاد الأئمة واستحسانات الشيوخ.

إنّ موقف علماء المسلمين من الصوفيّة يُلخّصه كلام الإمام ابن رجب الحنبلي الدمشقي رحمه الله (795هـ) في كتابه النافع (فضلُ علم السَّلف على الخلف) قال: (ومما أُحدث من العلوم الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرّد الرّأي والذّوق، أو الكشف ، وفيه خطرُ عظيم. وقد أنكرهُ أعيانُ الأئمّة كالإمام أحمد وغيره.

وكان أبو سليمان يقول: إنّه لَتَمُرُّ بي النُّكتةُ من نكت القوم فلا أقبلها إلاّ بشاهدين عدلين: الكتاب والسنّة.

وقال الجنُيد: عِلْمُنا هذا مقيدُ بالكتاب والسنّة ، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لاُ يقتدى به في علمنا هذا.

وقد اتّسع الخرقُ على الرَّاقع في هذا الباب ودخل فيه قومُ إلى أنواع الزّندقة والنّفاق ودعوى أنّ أولياء الله أفضل من الأنبياء ، أو أنّهم مستغنون عنهم ، وإلى تنقُّص ما جاءت به الرّسل من الشرائع ، وإلى دعوى الحلول والاتحاد ، أو القول بوحدة الوجود ، وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان ، كدعوى الإباحة ، وحلّ محظورات الشرع.

وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدِّين في شيء.

وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصّور المحرّمة ونظرها. وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس ، وغير ذلك مما لم يأت به الشريعة.

وبعضه يصُدُّ عن ذكر الله وعن الصّلاة كالغناء والنظر إلى المحرّم. وشابهوا بذلك الذين اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً). [فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلي (ص31)].

ومن أمثلة الكشف عند الصوفية ما يلي: (هذا ولقد ذكر في طبقاته عن صوفي آخر – وهو إبراهيم بن عصفير – الذي يقول عنه: (كان كثير الكشف ، وله وقائع مشهورة ، وظهرت له الكرامات وهو صغير ، وكان يأتي البلد وهو راكب الذئب أو الضبع ، وكان يمشي على الماء لا يحتاج إلى مركب ، وكان بوله كاللبن الحليب أبيض ،... وما ضبطت عليه كشفًا أخرم فيه. يكتب عن هذا الصوفي الذي بلغ أقصى درجات الولاية: كان أكثر نومه في الكنيسة ، ويقول: النصارى لا يسرقون النعال في الكنيسة بخلاف المسلمين ، وكان رضي الله عنه يقول: أنا ما عندي من صوم حقيقة إلا من لا يأكل لحم الضأن أيام الصوم كالنصارى ، وأما المسلمون الذين يأكلون لحم الضأن والدجاج أيام الصوم فصومهم عندي باطل) [طبقات الصوفية للشعراني 256]. فهل بعد هذا من جهل وضلال، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الشيخ محمد صالح المنجد في جوابه عن سؤال ملخصه: ما هو مكان الصوفية في الإسلام؟ ما صحة القول بأن هناك عبّاد وأولياء يتّصلون بالله، وعن أبرز ما يؤخذ عليهم، قال –حفظه الله-: «الجواب: الحمد لله، لم يعرف الإسلام اسم الصوفية في زمن الرسول وصحابته والتابعين حتى جاء جماعة من الزهاد لبسوا الصوف فأطلقوا هذا الاسم عليهم، وقيل مأخوذ من كلمة صوفيا ومعناها الحكمة باليونانية وليست مأخوذة من الصفاء كما يدعي بعضهم لأن النسبة إلى الصفاء صفائي وليست صوفي.

وظهور هذا الاسم الجديد والطائفة التي تحمله زاد الفرقة في المسلمين، وقد اختلف الصوفية الأوائل عن الصوفية المتأخرة التي انتشرت فيها البدع بشكل أكبر وعمّ فيهم الشرك الأصغر والأكبر وبدعهم مما حذرنا منه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: " إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وفيما يلي مقارنة بين معتقدات الصوفية وطقوسها وبين الإسلام المبني على القرآن والسنّة:

الصوفية: لها طرق متعددة كالتيجانية والقادرية والنقشبندية والشاذلية والرفاعية وغيرها من الطرق التي يدعي أصحابه أنهم على الحق وغيرهم على الباطل والإسلام ينهى عن التفرق ويقول الله تعالى {...ولا تكونوا من المشركين (31) من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون} (سورة الروم الآيات 31-32).

الصوفية: عبدوا غير الله من الأنبياء والأولياء الأحياء والأموات فهم يقولون (يا جيلاني ويا رفاعي ويا رسول الله غوثًا ومدد، ويا رسول الله عليك المعتمد).

والله ينهى عن دعاء غيره فيما لا يقدر عليه إلا هو ويعدّه شركًا إذ يقول {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك من الظالمين} سورة يونس ،آية 106.

الصوفية: تعتقد أن هناك أبدالاً وأقطابًا وأولياء سلّم الله لهم تصريف الأمور وتدبيرها والله يحكي جواب المشركين حين يسألهم: {ومن يدبر الأمر فسيقولون الله} سورة يونس: 31. فمشركو العرب أعرف بالله من هؤلاء الصوفية.

والصوفية يلجأون لغير الله عند نزول المصائب والله يقول: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير}.

بعض الصوفية: يعتقد بوحدة الوجود فليس عندهم خالق ومخلوق فالكل خلق والكل إله.

الصوفية: تدعو إلى الزهد في الحياة وترك الأخذ بالأسباب وعدم الجهاد والله تعالى يقول {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا} (سورة القصص ،آية 77).

{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} (سورة الأنفال ،آية 60).

الصوفية: تعطي مرتبة الإحسان إلى شيوخهم وتطلب من المريدين أن يتصوروا شيخهم عندما يذكرون الله حتى في صلاتهم وكان بعضهم يضع صورة شيخه أمامه في الصلاة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ". رواه مسلم.

الصوفية: تبيح الرقص والدف والمعازف ورفع الصوت بالذكر والله تعالى يقول {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} (سورة الأنفال، آية 3).

ثم تراهم يذكرون بلفظ الجلالة: الله فقط فيقولون الله، الله، الله وهذه بدعة وكلام غير مفيد لمعنى شرعي بل يصلون إلى حدّ التلفظ بكلمة (أهـ، أهـ). أو هو، هو. والإسلام والسنة أن يذكر المسلم ربّه بكلام مفيد صحيح يُؤجر عليه كقوله: سبحان الله والحمد له ولا إله إلا الله والله أكبر ونحو ذلك.

الصوفية تتغزل باسم النساء والصبيان في مجالس الذكر فيرددون اسم الحب والعشق والهوى وغيرها وكأنهم في مجلس طرب فيه الرقص وذكر الخمر مع التصفيق والصياح وكلّ هذا من عادة المشركين وعبادتهم قال الله تعالى: {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية} سورة الأنفال آية 35.(المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق).

بعض الصوفية يضرب نفسه بسيخ حديد قائلاً (يا جداه) فتأتيه الشياطين ليساعدوه على فعله لأنه استغاث بغير الله، قال الله تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين} سورة الزخرف، آية 36.

الصوفية: تدعي الكشف وعلم الغيب والقرآن يكذبهم: قال عزّ وجلّ: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله}. (سورة النمل آية 65).

الصوفية: تزعم أن الله خلق الدنيا لأجل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن يكذبهم قائلاً {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} (سورة الذرايات آية 56).

وخاطب الله سبحانه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} سورة الحجر آية 99).

الصوفية: تزعم رؤية الله في الدنيا والقرآن يكذبهم حين قال على لسان موسى: {رب أرني أنظر إليك قال لن تراني} (سورة الأعراف، آية 143).

الصوفية: تزعم أنها تأخذ العلم من الله مباشرة بدون واسطة الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة فهل هم أفضل من الصحابة؟

الصوفية: تزعم أنها تأخذ العلم من الله مباشرة بدون واسطة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقولون: حدثني قلبي عن ربي.

الصوفية: تقيم الموالد والاجتماع باسم مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهم يخالفون تعاليمه حينما يرفعون أصواتهم في الذكر والأناشيد والقصائد التي فيها الشرك الصريح. وهل احتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمولده أو أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والأئمة الأربعة وغيرهم فمن أعلم وأصحّ عبادة هؤلاء أم الصوفية.

الصـــوفية: تشـد الرحـال إلى القبـور للتـبرك بأهلهـا أو للطـواف حولهـا أو الـذبح عنـدها مخـالفين قـول الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم: " لا تشـد الرحـال إلا إلى ثلاثـة مسـاجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى " متفق عليه.

الصـــوفية: تتعصـب لشـيوخها ولـو خالفـت قـول الله ورسـوله، والله تعـالى يقـول: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله} سورة الحجرات آية 1.

الصـــوفية: تسـتعمل الطلاسـم والحـروف والأرقـام لعمـل الاسـتخارة والتمـائم والحجـب وغير ذلك.

الصـــوفية: لا تتقيـد بالصـلوات الـواردة عـن الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم بـل يبتـدعون صلوات فيها التبرك الصريح والشّرك الفظيع الذي لا يرضاه الذي يصلون عليه.

أمـا السـؤال عـن صـحة اتصـال مشـايخ الصـوفية فهـي صـحيحة لكنهـا مـع الشـياطين وليس مع الله

فيـوحي بعضـهم إلى بعـض زخـرف القـول غـرورا قـال تعـالى: {وكـذلك جعلنـا لكـل نـبي عـدوًّا شـياطين الإنـس والجـن يـوحي بعضـهم إلى بعـض زخـرف القـول غـرورا ولـو شـاء ربــك مــا فعلــوه} الأنعــام (112). وقــال تعــالى: {وإن الشــياطين ليوحــون إلى أوليائهم} الأنعام /121).

وقـال تعـالى: {هـل أنبـئكم علـى مـن تنـزل الشـياطين تنـزل علـى كـل أفـاك أثـيم) [الشـعراء 222/121]. فهـذا هـو الاتصـال الـذي يحـدث حقيقـة، لا الاتصـال الـذين يزعمونـه زورًا وبهتـانًا مـن اتصـالهم بالله، تعـالى الله عـن ذلـك علـوًّا كبـيرًا، [يُنظـر معجـم البدع: 346- 359].

واختفاء بعض مشايخ الصوفية فجأة عن أنظار أتباعهم هو نتيجة لهذا الاتّصال مع الشياطين حتى لربما حملوهم إلى أماكن بعيدة وعادوا بهم في اليوم نفسه أو الليلة نفسها إضلالا للبشر من أتْباعهم.

ولذلك كانت القاعدة العظيمة أننا لا نزن الأشخاص بالخوارق التي تظهر على أيديهم وإنما بحسب بعدهم وقربهم والتزامهم بالكتاب والسنّة، وأولياء الله حقّا لا يُشترط أن تظهر لهم خوارق بل هم الذين يعبدون الله بما شرع ولا يعبدونه بالبدع، أولياء الله الذين ذكرهم ربنا في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في الصحيح 2384/5 عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ". والله الموفق والهادي إلى طريق الصّواب.
[موقع الإسلام سؤال وجواب، فتوى رقم 4983]

وفي الختام.. ما قصدت إلا كلمات يسيرة فطال بي الكلام، ونأى بي طلب الأحكام والردود على بعض ضلالات وخرافات المتصوفة، وما أكثرها، وما أشد الجهل بالله وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والله أسأل أن يهدينا ويوفقنا ويرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال، وأن يحسن لنا الختام. والحمد لله رب العالمين.